نصائح العلماء

للعلماء

كتبه:

أبوعبدالله كمال بن ثابت العدني

قدم له

فضيلة الشيخ يحيى بن علي الحجوري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة فضيلة الشيخ

يحيى بن علي الحجوري حفظه الله تعالى

الحمد لله رب العالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد:

فقد قرأت أكثر ما جمعه أخونا الشيخ كمال العدني حفظه الله في هذه الرسالة المسماه نصائح العلماء للعلماء فرأيتها رسالة جميلة مفيدة حشد فيها أخونا الشيخ كمال أفاده الله، فوائد جمة أخرجها من بطون الكتب فجزاه الله خيراً ودفع عنا وعنه كل سؤ ومكروه.

كتبه: يحيى بن علي الحجوري

في ٢٢/ ربيع أول/ ١٤٢٩هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام ووفقنا إلى نعمة الإيمان، ثم زادنا من فضله فأرشدنا إلى طريق العلم نسلك سبيله ونهتدي بنوره فهو خير سبيل، سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فأنعم به من طريق من تمسك به نجا ومن تركه خذل وغوى.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة شهد هو عليها وأشهد ملائكته وأشهد خير من اصطفى من خلقه، وحده ربي لا شريك له، أقر بها إقرارا وأسأله ربي أن يعينني على العمل بمعناها فهو الأمر كله والخير كله.

وأشهد أن محمدا رسوله المصطفى ونبيه المجتبى خير الرسل أجمعين وسيد النبيين وإمام الأتقياء وعلماء العالمين من المخلوقين.

اللهم صل عليه وسلم وبارك وعلى آله الأمجاد الأطهار الذين نوّروا الدنيا بعلومه فنشروا مكنون علم بيت النبوة فأبانوها وعلموها حتى أصبح بحرا زاخرا تنهل منه علماء الأمة من زمنه إلى قيام الناس لرب العلمين.

ورضي الله عن الصحب الكرام أهل العلم والحلم منهم ينبع أنهار العلوم ومن أفهامهم تسيل الحكمة ويستضاء السبيل، نشر الله بهم العلم فمن أخذ من علمهم فقد أخذ بحظ وافر، وغير طريقهم إن سلك فإلى الهاوية عابر.

أما بعد: اعلم وفقني الله وإياك أنه كان لي كتابة في العلم في كتابي المسمى طلب العلم وبر الوالدين، وذكرت فيه جملة من فضل العلم ولا يليق التكرار ولكن فضل العلم لا يخفى على الناس، فبه تستقيم الحياة وتنصب

موازين الأمور وبه يعبد الله وحده لا شريك له، فتقام الملة وتعظم حرمات الله كبيرها وصغيرها.

قال ابن حزم رحمه الله في "الأخلاق والسير" صـ(٢١): العلم لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك لكان ذلك سببا إلى وجوب طلبه فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط نظراءه من الجهَّال لكان ذلك سببا إلى وجوب الفرار عنه فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس لكان ذلك أعظم داع إليه فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والأغاني وركض الدواب في طلب الصيد وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة وأما فائدة فلا فائدة لو تدبر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال ومن الهم بمغيب الحقائق عنه ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية عن غيره لزاد حمدا لله عزوجل وغبطة بما لديه من العلم ورغبة في المزيد منه. اهـ

وليس أي علم بل علم الكتاب والسنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (١٣/ ٢٤٧): والعلم النافع الذى تحصل به النجاة من النار ويسعد به العباد فلا يحصل إلا باتباع الكتب التي جاءت بها الرسل قال تعالى {فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن

أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن} الخ وقال تعالى {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين} فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقد ضل. اهـ

فلما كانت هذه منزلة العلم كان علينا حتما أن نعرف لأهله حقهم، فإن للعلماء علينا من الحقوق الكبيرة الكثيرة ما لا يحصى، لكن الذي نحتاج أن نعلم: مَنْ رواده، ومن قواده؟ وما يحتاجون إليه هؤلاء الرعيل من الصفات والمميزات حتى يكونوا من أهله ومن ورثته؟ وخاصة أننا في زمان كثر فيه مدعي العلم، وكثر فيه من ينسب إلى العلماء، فإذا فتشت عنه علم ذلك العالم، وجدته لا يحمل اللقب الذي أعطيه وللأسف الشديد!

قال الذهبي رحمه الله في "سير أعلام النبلاء" (٧/ ١٥٣): قوم انتموا إلى العلم في الظاهر ولم يتقنوا منه سوى يسير أوهموا به أنهم علماء فضلاء ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم فصاروا همجاً رعاعاً غاية المدري منهم أن يحصل كتباً مثمنة يخزنها وينظر فيها يوما فيصحف ما يورده ولا يقرره فنسأل الله النجاة والعفو. اهـ

سبب كتابتي هذا الكتاب

والذي جعلني أكتب هذا الكتاب أن الناس أصبحوا لا يميزون مَنْ هو العالم !؟ الذي هو للعلم حاملاً، وللخير ناقلا، والدعوة صادعا، والدب

عن حياض السنة حاميا، وللكتابة مؤلفا، وللمُقصر ناصحا، وللأعوج مقيّما، ولطلاب العلم مرشدا وموجهاً، حتى أصبح من يقال عنه عالم لا يحسن أهم الأمور التي تتعلق بالدين بل لا يحسن بعض العلوم التي أحوج ما يكون إليها طالب العلم ما تسمى بعلوم الآلة وهي من مبادئ العلوم، ولولا أنه سيقال أننا نتتبع عوراة العلماء لذكرت لك بعض ما وقع فيه من يسمى في زماننا عالماً من الأمور التي يتعجب منها للأسف الشديد وكل هذا لعدة أسباب هو حاصل:

منها: المعلمة قبل أوانها، وهذه العجلة التي حذر منها السلف رحمهم الله، وقد جاء عن مالك رحمه الله أنه لم يفتي حتى أجازه عدد كبير من مشايخه بالفتوى، حتى قيل له لو منعوك أتمتنع؟ قال: نعم.

ومنها: طلب الرياسة وهذا هو قاصمة الظهر فهو مما يجعل الشخص يتعجل العلوم ولا يحسنها بل يتوثب عليها توثبا ويتطاول على العلم وأهله.

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله تعالى في "التوحيد" (٢/ ٦٩٣): إذ أكثر أهل زماننا لا يفهمون هذه الصناعة ولا يميزون بين الخبر المتقصى وغيره وربما خفي عليهم الخبر المتقصى فيحتجون بالخبر المختصر يترأسون قبل التعلم قد حرموا الصبر على طلب العلم ولا يصبروا حتى يستحقوا الرئاسة فيبلغوا منازل العلماء.

ومنها: مدح بعض الجاهلين لذلك الشخص وقولهم فلان عالم وفلان كبير العلماء، وفلان أبو العلماء، ومثل هذا المدح لا يمر على الناس فإنه يأتي زمان وينكشف ذلك المدعو إما بضعفه العلمي وإما بركاكة كتابته أو بغير ذلك.

ومنها: الدفع بذلك المسكين إلى ساحة العلم عن حسن ظن به من أهل العلم مع علمه هو عن نفسه أنه لم يؤتِ أكله بعد، فيقع في تخبطات الطريق واعوجاج السبل، فتارة يقوم وتارة يسقط، فإن لم يتدارك نفسه علمياً أخذته الريح إلى مكان سحيق، والعياذ بالله عزوجل.

هذه أهم الأشياء التي تردي بصاحبها قتيلاً في ميدان لا يدخله إلا من أتعب نهاره وجسده في الجلوس عند العلماء ومنهومان لا يشبعان طالب دنيا وطالب علم، فهذا الذي جعلني أكتب مع أني يعلم الله عزوجل أني أجل العلماء ومن هذا الذي لا يجل من أجل الله سبحانه؟ ولكن مَنْ هم العلماء؟، هذا الذي يحتاج إلى جواب؟

وقد جعلت كتابي هذا نصائح من علماء -عُلِمَ قدرهم وعلمهم وشهد لهم الناس بالعلم الذي لا يدفع- إلى علمائنا أهل عصرنا وذلك لأهمية النصيحة في الدين لحديث أبي رقية تميم < الدين النصيحة الدين النصيحة > رواه مسلم، وهو عن البخاري معلقاً وما أجمل أن ينصح العالم العالم لإستقامة الدين.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في "فتح الباري" عند حديث (رقم ٢١٧٨) في قصة أبي سعيد مع ابن عباس في الربا: وَفِي قِصَّة أَبِي سَعِيد مَعَ اِبْن عُمَر وَمَعَ اِبْن عَبَّاس أَنَّ الْعَالِمَ يُنَاظِرُ الْعَالِمَ وَيُوقِفُهُ عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ وَيَرُدُّهُ مِنْ الاخْتِلافِ إِلَى الاجْتِمَاعِ وَيَحْتَجُّ عَلَيْهِ بِالأَدِلَّةِ. اهـ

العلم هو منةٌ من الله عزوجل

قال الله سبحانه وتعالى {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ } [آل عمران:١٦٤] وقال تعالى {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهّ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهّ عَلَيْكَ عَظِيماً }[النساء:١١٣] وقال تعالى { قَالَ إِنَّ اللهّ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }[البقرة:٢٤٧]، فلما كان العلم هو فضل الله وعطاءه كان أحق من يتفضل الله عزوجل به عليه هم أنبيائه ورسوله عليهم الصلاة والسلام:

وصف الأنبياء بالعلم

لما كان العلم فيه الشرف لحمله كان أعظم الخليقة شرفاً هم خلفاء الله في أرضه وهم أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام فأخبر تعالى أنه منّ عليهم بهذه المنزلة والمكرمة الشريفة القدر وهي العلم، ولقد كان من دعاء الرسل أن يبعث الله الرسل معلمين، فقال تعالى مخبراً عن قول الأنبياء: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }[البقرة:١٢٩]، كما امتن الله بإجابة دعوة الرسل ذلك فقال: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ

تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:١٥١]، وقال أيضاً {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }[الجمعة:٢].

والعلم كان أول شيء وهبه الله لآدم بعد خلقه، قال الله تعالى في كتابه الكريم {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها}.

وقال الله في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً }[مريم:٤٣].

وقال تعالى في حق لوط عليه الصلاة والسلام {وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ }[الأنبياء:٧٤].

وقال في حق موسى عليه الصلاة والسلام {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }[القصص:١٤].

وقال في حق الخضر عليه الصلاة والسلام {فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً }[الكهف:٦٥].

وقال في حق داود عليه الصلاة والسلام {وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِّ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللهِّ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }[البقرة:٢٥١].

وقال فيه وفي سليمان عليهما الصلاة والسلام {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ }[النمل:١٥]

وقال تعالى في حق سليمان عليه الصلاة والسلام {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ }[الأنبياء:٧٩].

وقال في حق يعقوب عليه الصلاة والسلام {وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهّ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }[يوسف:٦٨].

وقال تعالى في حق يوسف والأنبياء من قبله عليهم الصلاة والسلام {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }[يوسف:٦] وقال تعالى في حق يوسف عليه الصلاة والسلام {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }[يوسف:٢٢] وقال تعالى {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }[يوسف:٢١] وقال تعالى {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي الصَّالِحِينَ}[يوسف:١٠١].

وقال في حق عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ }[آل عمران: ٤٨]، وقال {إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ }[المائدة:١١٠].

وقال تعالى في حق نبينا عليه صلاة الله وملائكته والناس أجمعين وسلم {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ }[آل عمران: ٦١].

وقال تعالى {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]

أعظم شهادة من أعظم شهود

{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[آل عمران: ١٨].

قال البيهقي في "الشعب ": فصل: **في فضل العلم و شرف مقداره**

قال الله عز و جل: { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم} فقرن اسم العلماء باسم ملائكته كما قرن اسم الملائكة باسمه فكما وجب الفضل للملائكة بما أكرمهم به فكذلك يجب الفضل للعلماء بما أكرمهم به من مثله.

وقال ابن كثير: شهد تعالى وكفى به شهيدا وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين { أنه لا إله إلا هو } أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغني عما سواه كما قال تعالى : { لكن الله يشهد بما أنزل إليك } الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم } وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.

وقال القرطبي: في قوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم}: في هذا الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، وقال في شرف العلم لنبيه صلى الله عليه وسلم { وقل رب زدني علما } فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم وقال صلى الله عليه وسلم < إن العلماء ورثة الأنبياء >،... وهذا شرف للعلماء عظيم ومحل لهم في الدين خطير.

مرجعية الأمة عند الخلاف إلى أهل العلم

قال الله تعالى في كتابه الكريم {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهّ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء:٨٣]، وقال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً}[محمد:١٦] وقال تعالى {وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت:٤٣]

أهل العلم أهل نصح

قال تعالى في حقهم أنهم أهل النصح وأنهم هم الذين يحبون الخير للناس وهم الذين يحذرون الناس من الشر{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهَّ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا لصَّابِرُونَ }[القصص:٨٠]، وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهَّ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ }[القصص:٨٠] وقال تعالى {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }[سبأ:٦]

وروى الخطيب في "الكفاية في علم الرواية": (١/ ٢): عن أبي العباس أحمد بن علي الأبار، قال: رأيت بالأهواز رجلا قد حف شاربه، وأظنه قد اشترى كتبا وتعبأ للفتيا، فذكروا أصحاب الحديث، فقال: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئا، فقلت له: أنت لا تحسن تصلي! قال: أنا ! قلت: نعم، قلت: إيش تحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا افتتحت الصلاة ورفعت يديك؟ فسكت، فقلت: فإيش تحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وضعت يديك على ركبتيك؟ فسكت، قلت: إيش تحفظ عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم إذا سجدت؟ فسكت، قلت: ما لك لا تتكلم! ألم أقل لك: إنك لا تحسن تصلي؟ أنت إنما قيل لك: تصلى الغداة ركعتين، والظهر أربعاً، فالزم ذا خير لك من أن تذكر أصحاب الحديث، فلست بشيء ولا تحسن شيئا. اهـ

خير إرث من خير مورث لخير وارث

قال ابن ماجه برقم (٢٢٣): حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا عبد الله بن داود، عن عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال: كنت جالسا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل فقال يا أبا الدرداء أتيتك من المدينة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني أنك تحديث به عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال فما جاء بك تجارة؟ قال: لا، قال: لا، قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: < من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، أن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر >، حديث صحيح خرجته في تحقيقى على مقدمة سنن ابن ماجه.

قال "العيني" رحمه الله عند هذا الحديث في "عمدة القاري" (٢/ ٤٠): وإنما سمى العلماء ورثة الأنبياء لقوله تعالى {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا

من عبادنا} [فاطر: ٣٢] قوله: < ورثوا العلم > بفتح الواو وتشديد الراء من التوريث ويجوز بفتح الواو وكسر الراء المخففة والضمير المرفوع فيه يرجع إلى الأنبياء في قراءة التشديد وإلى العلماء في قراءة التخفيف وأعاد بعضهم الضمير إلى العلماء في الوجهين وليس بصحيح ويجوز ضم الواو وتشديد الراء المكسورة أيضا فعلى هذا يرجع الضمير أيضا إلى العلماء، قوله < من أخذه > أي من أخذ العلم من ميراث النبوة < أخذ بحظ > أي بنصيب < وافر > كثير كامل. اهـ

وقال المناوي في "فيض القدير" (٢/ ٩٣): أكرموا العلماء لعلمهم بأن تعاملوهم بالإجلال والإعظام وتوفوهم حقهم من التوقير والاحترام فإنهم حقيقيون بالإكرام إذ هم ورثة الأنبياء أراد به ما يشمل الرسل كما هو بين والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم قال بعض العارفين إنما يرث الإنسان أقرب الناس له رحماً ونسباً وعملاً فلما كان العلماء أقرب الناس إليهم وأجرأهم على عملهم ورثوهم حالاً وفعلاً وقولاً وعملاً ظاهراً وباطناً فعلم أنه إنما ينال هذا المنصب من عمل بعلمه فالعاملون به يستحقون الإكرام والإعظام لأنهم من الخلق أسراره وعلى الأرض أنواره وللدين أوتاد وعلى أعداء الله أجناد فهم لله أولياء وللأنبياء خلفاء { أولئك حزب الله }.

وقال القرطبي في "المفهم" (٦/ ٦٨٩): فالعلماء هم العالمون بمصالح الأمة بعده صلى الله عليه وسلم الذابون عن سنته الحافظون لشريعته فهؤلاء الأحق بالوراثة.

وقال ابن القيم في "بدائع الفوائد" (٣/ ٧٩٢): قال سهل بن عبد الله من أراد أن ينظر إلى محاسن الأنبياء فلينظر إلى محاسن العلماء يجيء الرجل فيقول يا فلان إيش تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا فيقول طلقت امرأته، وهذا مقام للأنبياء فاعرفوا لهم ذلك.

وقال أيضاً في "طريق الهجرتين" ص(٣٥٢): ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به، علماً وعملاً ودعوة الخلق إلى الله على طريقه ومنهاجه.

الخير كله عند العلماء

عن معاوية رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم: < من يرد الله به خيرا يفقه في الدين > متفق عليه.

قال ابن حجر في "فتح الباري" (١/ ١٦٥): ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حرم الخير وقد أخرج أبو يعلى حديث معاوية من وجه آخر ضعيف وزاد في آخره ومن لم يتفقه في الدين لم يبال الله به والمعنى صحيح؛ لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيها ولا طالب فقه فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم.

وقال الغزالي: والعلماء أطباء الدين فعليهم أن يتكفل كل عالم منهم بقطره أو محلته فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعلمهم أمر دينهم ويميز البدعة

من السنة وما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا يصبر حتى يسأل منه بل يتصدى للدعوة بنفسه لأنهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على دورهم فإن مرضاء القلوب لا يعرفون مرضهم فهذا فرض عين على كافة العلماء.
"فيض القدير" (١/ ٤٠١)

ضياع العلم بموت العلماء

قال البخاري في صحيحه برقم (٦٨٧٧): حدثنا إسماعيل بن أويس قال حدثني مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: <إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا>. أخرجه مسلم في باب [رفع العلم] رقم (٢٦٧٣).

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة برقم (١٠٢٣٦) قال: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا وكيع عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تظهر الفتن ويكثر الهرج ويرفع العلم فلما سمع عمر أبا هريرة يقول يرفع العلم قال عمر أما انه ليس ينزع من صدور العلماء ولكن يذهب العلماء.

قال أبوعبدالله: إسناده صحيح.

وأخرجه الدارمي عن ابن عباس برقم (٢٤٣) قال: أخبرنا محمد بن الصلت ثنا أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن بن عباس قال : هل تدرون ما ذهاب العلم قلنا لا قال ذهاب العلماء.

قال أبوعبدالله: إسناده حسن لغيره.

الحيوان العالم خير من الحيوان الجاهل

وقد علم أن الله سبحانه أحل لنا ما صاد الحيوان المعلم من أصحاب الجوارح ولم يحل لنا ما صاد غيره وإن شارك جاهلهم معلمهم لم يحل لعظم شأن العلم، قال الله تعالى في كتابه الكريم {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }[المائدة:٤]

التأدب مع العلماء

إن الله سبحانه أمر عباده بالأدب معه ومع رسوله ومع أهل العلم لمنزلتهم عند الله تعالى، وعند الخلق.

قال ابن سعد: أخبرنا الفضل بن دكين أخبرنا رزين بياع الرمان عن الشعبي قال أخذ ابن عباس لزيد بن ثابت بالركاب وقال هكذا يفعل بالعلماء والكبراء.

وأخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري أخبرنا محمد بن عمر عن أبي سلمة عن بن عباس أنه أخذ لزيد بن ثابت بالركاب فقال تنح يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هكذا نفعل بعلمائنا كبرائنا. "الطبقات الكبرى" (٢/ ٣٦٠).

قال أبوعبدالله: سنده صحيح ورجاله ثقات.

قال ابن الصلاح في "المغني" (١٦٨): ينبغي أن بحفظ الأدب مع المفتي ويبجله في خطابه وسؤاله ونحو ذلك ولا يؤمي بيده في وجهه ولا يقول له ما تحفظ في كذا وكذا.

لحرص السلف عل تبجيل أهل العلم والفضل نراهم يهتمون بالوصايا لطلاب العلم بل وللناس جميعاً باحترام العلماء وتبجيلهم وذلك مثل ما وروى ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم" (١/ ١٤٦): عن علي قال: من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة، وعلى القوم عامة وتجلس قدامه ولا تشير بيديك ولا تغمز بعينيك ولا تقل قال فلان خلاف قولك ولا تأخذ بثوبه وتلح عليه في السؤال فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شيء. اهـ

و قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في "مجموع الفتاوى": (٢٨/ ١٧): وعلى المتعلم أن يعرف حرمة أستاذه ويشكر إحسانه إليه، فإن من لا يشكر الناس لا يشكر الله، ولا يجد حقه ولا ينكر معروفه.

ويتعدد الأدب مع هؤلاء الفضلاء الأجلاء النبلاء فمنه:

الأدب مع العلماء بحبهم في الله وعدم التعصب لخطأهم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في "الفتاوى" (١١/ ٥١٢): ليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ولا يخص أحدًا بمزيد موالاة إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه فيقدم من قدم الله ورسوله عليه ويفضل من فضله الله ورسوله.

وقال في "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" ص(١١): فيجب على المسلمين بعد مولاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر. اهـ

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في عقيدته: وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

ومع هذه المنزلة والحب إلا أنه لا يجوز التعصب بالباطل لأحدهم، كما نص على ذلك ابن تيمية كما في "الفتاوى" (٢٠/ ٨-٩): من نصب شخصاً كائنا من كان، فوالى وعادى على موافقة في القول والفعل، فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل اتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيار فيوالي ويعادي من خالفهم فينبغي للإنسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل فهذا زاجر وكمائن القلوب تظهر عند المحن وليس لأحد أن يدعو

إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله أو أخبر الله به ورسوله لكون ذلك طاعة لله ورسوله.

ومن الأدب معهم الإنصات لهم

قال البخاري: [باب: الإنصات للعلماء]

حدثنا حجاج، قال حدثنا شعبة، قال أخبرني علي بن مدرك، عن أبي زرعة، عن جرير: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع: < استنصت الناس >.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: قال بن بطال: فيه أن الإنصات للعلماء لازم للمتعلمين لأن العلماء ورثة الأنبياء. اهـ "فتح الباري" (١/ ٢١٧)

ومن الأدب لهم الترغيب في إكرامهم وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم.

وهذا ما بوب عليه الإمام المنذري في "الترغيب والترهيب" وذكر هذه الأحاديث:

عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد يعني في القبر ثم يقول أيهما أكثر أخذا للقرآن فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد.

قال أبوعبدالله: رواه البخاري في صحيحه برقم (١٣٤٣)

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: < إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط > رواه أبو داود .

قال أبوعبدالله: هو في صحيح الترغيب والترهيب للعلامة الألباني رحمه الله.

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: < البركة مع أكابركم >

رواه الطبراني في الأوسط، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: < ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر > رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان في صحيحه.

قال ابن القيم في "بدائع الفوائد" (٢/ ٣٢٦): المحبة لا تنفك عن تعظيم وإجلال للمحبوب ولكن يضاف إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذات فمحبة العبد لربه تستلزم إجلاله وتعظيمه وكذلك محبة الرسول تستلزم توقيره وتعزيزه وإجلاله وكذلك محبة الوالدين والعلماء.

أدب الجلوس عند العلماء

ومجالس العلماء يعمرها الخير وذكر الله تعالى وتتنزل عليهم السكينة ويجالسونهم الملائكة فيكيف لا يهتم بآداب مجالستهم ! وقد كان السلف أحدهم يتهيب مجالس العلماء ويعد لذلك حساباً كما في حديث ابن عباس

مع عمر حين قال: ومكثت سنين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن حديث ما منعني منه إلا هيبته. رواه البخاري

وروى ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١/ ١٢٩): عن علي قال إن من حق العالم إلا تكثر عليه السؤال ولا تعنته في الجواب وإن لا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا تفشي له سرًا ولا تغتابن عنده أحدًا وإن زل قبلت معذرته وعليك أن توقره وتعظمه لله مادام يحفظ أمر الله ولا تجلس أمامه وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.

وقال أيضاً: وحقيقة على من جالس عالماً أن ينظر إليه بعين الإجلال وينصت له عند المقال وأن تكون مراجعته له تفهماً لا تعنتاً وبقدر إجلاله الطالب للعلم ينتفع بما يفيد من علمه.

وقال النووي في "شرح مسلم" (٤/ ٦٦): وفي هذا الحديث- أي < سبحان الله إن المسلم لا ينجس >- استحباب احترام أهل الفضل وأن يوقرهم جليسهم ومصاحبهم فيكون على أكمل الهيئات وأحسن الصفات وقد استحب العلماء لطالب العلم أن يحسن حاله في حال مجالسة شيخه فيكون متطهرا متنظفا بإزالة الشعور المأمور بإزالتها وقص الأظفار وإزالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة وغير ذلك فإن ذلك من إجلال العلم والعلماء، والله أعلم.

وقال أبوعبدالرحمن السلمي في "آداب الصحبة" (١/ ١٢٠): الصحبة مع العلماء بملازمة حرماتهم وقبول قولهم والرجوع إليهم في المهمات والنوازل وتعظيم ما عظم الله من محلهم حيث جعلهم خلفا لنبيه صلى الله عليه وعلى

آله وسلم وورثته، فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم < إنه قال العلماء ورثة الأنبياء>.

وذكر ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم" (١/ ١٣٠): عن الحسن بن علي: يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٣/ ٣٤٣): قال الراغب: قال بعض الحكماء: مجالسة العلماء ترغبك في الثواب ومجالسة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك عن الذم ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الله الباري تعالى.

وقال بعضهم: إذا جالست أهل الدنيا فحاضرهم برفع الهمة عما بأيديهم مع تحقيرها وتعظيم الآخرة، وأهل الآخرة فحاضرهم بوعظ الكتاب والسنة وتعظيم دار البقاء وتحقير دار الفناء، و الملوك فبسيرة أهل العدل مع حفظ الأدب والعفاف، و العلماء فبالروايات الصحيحة والأقوال المشهورة مع الإنصاف وعدم الجدال المظهر حب العلو عليهم.

وقال ابن عبدالبر في "التمهيد" (١٤/ ٧٧): فالواجب على المسلم مجالسة العلماء إذا أمكنه والسؤال عن دينه جهده فإنه لا عذر له في جهل ما لا يسعه جهله وجملة القول أن لا سؤدد ولا خير مع الجهل.

وقال ابن الجوزي في "التذكرة في الوعظ" (١/ ١٨٣): أحوج الناس إلى صحبة المعلمين ثلاث رجال: رجل يطلب أن يكون من وزراء السلاطين، ورجل يطلب العلم ليصير به من أئمة الدين، ورجل يطلب العبادة ليتوصل

بها إلى مقامات المقربين، لأن من صحب السلطان بغير تأدب بأهل ذلك الشأن لم يأمن أن يكون حتفه في سقطه من سقطات اللسان، ومن لم يتأدب بعلمه بآداب العلماء لم يأمن أن يكون حتفه في بعض أودية ضلال الآراء، ومن تعبد من غير مداخلة لأولياء الله لم يأمن أن يتبع السبل فتفرق بكم عن سبيل الله، من يكن شيخ نفسه في الطريق لم ينل رتبة من التحقيق لا يتم السلوك في الطرق إلا بخفير ومرشد ورفيق، قطاع الطريق على أرباب السلوك أربعة: كافر مطاع يشكك في الله ومبتدع يزيغك عن سنة رسول الله وفاسق يجريك على معاصي الله وغافل ينسيك صحبة ذكر الله إذا ما عزمت السير في نيل متجر يكون له من صفقة الربح حاصل فأربعة لا تسلك سبيلهم كفور وبدعي وعاص وغافل هذه نصيحة أهديها إليك فأمكسها بكلتي يديك وعض عليها بناجزيك تتم بها نعمة الله عليك.

وقال القرطبي عند قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام، وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم إذ هم ورثة الأنبياء.

أدب مناداة العلماء

ومن الأدب أن ينادى الإنسان بما يحب من الأسماء أو الكنية، وأما من ارتفع شأنه وعظم أمره كالعالم أو السلطان فإن من الأدب أن ينادى بالكنية.

قال النووي في "تهذيبه": ويستحب أن يكنى أهل الفضل من العلماء وغيرهم.

وقال في "الأذكار" ص(٢٦٠): والأدب أن يخاطب أهل الفضل ومن قاربهم بالكنية وكذلك إن كتب إليه رسالة وكذا إن روى عنه رواية فيقال: حدثنا الشيخ أو الإمام أبوفلان بن فلان وما أشبهه.

وقال القلقشندي في "صبح الأعشى" (٥/ ٤٠٦): واعلم أن الأولين أكثر ما كانوا يعظمون بعضهم بعضاً في المخاطبات ونحوها بالكنى ويرون ذلك في غاية الرفعة ونهاية التعظيم حتى في الخلفاء والملوك فيقال أبو فلان فلان،.. على أن التعظيم بالكنى باق في الخلفاء والملوك فمن دونهم إلى الآن على ما ستقف عليه في مواضعه إن شاء الله تعالى وكذلك القضاة والعلماء.

الأدب في أخذ العلم عن العالم

قال تعالى {وأتوا البيوت من أبوابها} ومن تلك الأبواب باب العلم عند العلماء فيحتاج إلى الأدب في دخول ذلك الباب.

قال الخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (٢/ ١٥٥): أخبرني أبوعلي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فضالة النيسابوري بالري أنا أبو أحمد محمد بن أحمد العبدي أنا الحسن بن سفيان نا العباس بن الوليد نا مروان بن معاوية نا سعيد بن عبد العزيز عن سليمان ابن موسى قال: يجالس العلماء ثلاثة رجل يسمع ولا يكتب ولا يحفظ فذاك لا شيء، ورجل يكتب كل شيء سمعه فذلك الحاطب، ورجل يسمع العلم فيتخيره ويكتب فذاك العالم.

إذا كان المحدث مكثرا وفي الرواية متعسرا فينبغي للطالب أن ينتقي حديثه وينتخبه فيكتب عنه ما لا يجده عند غيره ويتجنب المعاد من رواياته وهذا

حكم االواردين من الغرباء الذين لا يمكنهم طول الإقامة والثواء، وأما من لم يتميز للطالب معاد حديثه من غيره وما يشارك في روايته مما يتفرد به فالأولى أن يكتب حديثه على الاستيعاب دون الانتقاء والانتخاب.

وقد يكون العالم على مكانة من العلم والدين إلا أنه يبتلى بأقرب الناس إليه فلا تجد منهم اهتماما أو تحصيلا أو نهمة في أخذه، وصدق القائل أزهد الناس في العالم أهله.

قال المناوي في "فيض القدير" (١/ ٤٨١) عند شرح قوله: < أزهد الناس في العالم أهله >، < أزهد الناس > بفتح الهمزة وسكون الزاي وفتح الهاء- أي أكثر الناس زهداً < في العالم > بالعلوم الشرعية.. < أهله >، وذلك سنة الله في الماضين، وعادته في النبيين والعلماء ورثتهم.

وقال الماوردي: فإذا قرب منك العالم فلا تطلب ما بعد، وربما انبعثت نفس الإنسان إلى من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه، وانتقل إلى من لم يخبره مللا من خبره، فلا يدرك مطلوبا ولا يظفر بطائل. اهـ

ولا يظن الإنسان أن يأخذ العلم براحة الجسد وشبع البطن فما طلبها أحد بذلك إلا خاب سعيه وقلة حصيلته فإن العلم لا ينال براحة الجسد كما قال مجاهد رحمه الله، وروى الإمام البيهقي رحمه الله تعالى أن المهدي لما قدم المدينة حاجاً جاءه مالك فسلم عليه فأمر المهدي ابنيه موسى الهادي وهارون الرشيد أن يسمعا منه فطلباه إليهما فامتنع فعاتبه المهدي في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين إن للعلم نضارة يؤتي أهله وفي رواية: العلم أهل أن

يوقر ويؤتى أهله فأمرهم والدهما بالمصير إليه فسأله مؤدبهما أن يقرا عليهما، فقال: إن أهل هذه البلدة يقرءون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم فأن أخطأوا أفتاهم، فرجعوا إلى الخليفة فعاتبه المهدي في ذلك، فقال يا أمير المؤمنين سمعت سعيد بن المسيب وأبو سلمة وعروة والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله وخارجة بن زيد وسليمان بن سيار.. كل هؤلاء يقرأ عليهم و لا يقرؤون، فقال المهدي: في هؤلاء قدوة صيروا إليه فاقرؤوا عليه ففعلوا.

قال أبوعبدالله: انظر رعاك الله تعالى كيف كان أئمة السلف يؤدبون أبناء الأمراء على احترام العلماء وعلى أدب مجالستهم.

قال الرامهرمزي في "المحدث الفاصل" (١/ ٢٠٢): حدثنا الساجي ثنا أحمد بن مدرك حدثني حرملة قال سمعت الشافعي يقول: لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملك وغنى النفس فيفلح ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح.

الأدب في عدم الاعتراض على العالم

قال الشاطبي: إن العالم المعلوم بالأمانة والصدق والجري على سنن أهل الفضل والدين والورع إذا سئل عن نازلة فأجاب أو عرضت له حالة يبعد العهد بمثلها أو لا تقع من فهم السامع موقعها أن لايواجه بالاعتراض والنقد. اهـ

قال ابن حجر في قصة اعتراض عمر على النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية قال (٥/ ٣٥٢): وَأَنَّ التابع لا يَلِيق بِهِ الاعْتِرَاض عَلَى الْمُتْبُوع بِمُجَرَّدِ مَا يَظْهَر فِي الْحَال بَلْ عَلَيْهِ التَّسْلِيم ، لأَنَّ الْمُتبُوع أَعْرَف بِمَآلِ الْأُمُور غَالِبًا بِكَثْرَةِ التجْرِبَة وَلا سِيمَا مَعَ مَنْ هُوَ مُؤَيَّد بِالْوَحْيِ.

أدب الاستئذان على العالم

قال المولى سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [الأحزاب: ٥٣].

قال المناوي في " فيض القدير" (٥/ ١٦٩): أن العلماء لا ينبغي أن يطرق بابهم عند الاستئذان عليهم إلا طرقا خفيفا بالأظفار ثم بالأصابع ثم الحلقة قليلاً قليلا، نعم إن بعد موضعه عن الباب بحيث لا يسمع صوت قرعه بنحو ظفر قرع بما فوقه بقدر الحاجة.

أدب الصدق في النقل عن العالم

لقد لقينا عجباً في مثل هذا الأمر العظيم فإن الكذب على ورثة الأنبياء يعظم كما أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم لقوله < من كذب علي متعمدا فليبوأ مقعده من النار > وكذا حين يكذب على العالم فيقوله ما لم يقل فإن الخطب يكبر؛ لأن العالم السلفي يقتد به وبكلامه فإن كُذب عليه فيسبب ذلك اضطرابا في أحوال الناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في "مجموع الفتاوى" (٦/ ٩٥): فما أكثر ما يحكى عن الأئمة ما لا حقيقة له.

وقال ابن القيم في "روضة المحبين" (١/ ١٢٥): فقبح الله الفسقة الكذابين على العلماء، لاسيما على مثل سعيد فهؤلاء كلهم فسقة كاذبون أرادوا تنفيق فسقهم بالكذب على علماء وقتهم.

تقسيم العلماء ومراتبهم

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: إن معرفة الإنسان بأحوال العلماء رفعة وزين وغن جهل طلبة العلم وأهله بهم لوصمة وشين ولقد علمت الإيقاظ أن العلم بذلك جم المصالح والمراشد وأن الجهل به إحدى جوالب المناقص والمفاسد من حيث كونهم حفظة الدين الذي هو أس السعادة الباقية ونقلة العلم الذي هو المرقاة إلى المراتب العالية فكمال أحدهم يكسب مؤداه من العلم كمالاً واختلالها يورث خللاً وخبالاً وفي المعرفة لهم معرفة من هو أحق بالاقتداء وأحرى بالاقتفاء..وقد روينا في مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح رضي الله عنه أنه قال: أن أول ما يجب على مبتغي العلم أن يعرف مراتب العلماء في العلم ورجحان بعضهم على بعض.

قال الطبراني برقم (٤٧٤٧): حدثنا أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي ثنا أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان العلماء بعد معاذ بن جبل عبد الله بن مسعود و أبو الدرداء و سلمان و عبد الله بن سلام وكان العلماء بعد هؤلاء زيد بن ثابت ثم كان بعد زيد ابن عمر و ابن عباس.

وقال البيهقي في "شعب الإيمان" (٢ / ٢٩٨): أخبرنا محمد بن عبد الله ثنا الحسن ثنا أبو عثمان قال: سمعت الحسن بن عيسى مولى ابن المبارك يقول: سمعت ابن المبارك يقول: أما الناس العلماء و الملوك الزهاد و السفلة الذي يأكل بدينه أموال الناس بالباطل ثم قرأ : {يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل} قال: يأكلون الدنيا بالدين قال: فبكى فضيل بن عياض بكاء شديد ثم قال: كذب من قال أنه لا يأكل بدينه أنا و الله آكل بديني.

وقال البيهقي في "شعب الإيمان" (٢ / ٣١٤): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو عبد الله العصمي أخبرني أحمد بن محمد بن رزين عن علي بن خشرم قال : قال سفيان بن عيينة قال بعض الفقهاء : كان يقال العلماء ثلاثة : عالم بالله و عالم بأمر الله و عالم بالله و بأمر الله، فأما العالم بالله فهو الذي يخاف الله و لا يعلم السنة و أما العالم بأمر الله فهو الذي يعلم السنة و لا يخاف الله و أما العالم بالله و بأمر الله فهو الذي يعلم السنة و يخاف الله فذلك الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات.

قال أبوعبدالله: إسناده صحيح، إن كان أحمد بن محمد رزين هو الباشاني الهروي، فهو صاحب الفوائد وهو إمام، كثيرا ما يقرن بالأئمة كما في تهيب الكمال، نقل عنه الحافظ في "الإصابة" (٢/ ٣٠٦).

وقال الدارمي رحمه الله تعالى في "مقدمة سننه" برقم (٣٦٣): أخبرنا محمد بن يوسف عن سفيان قال : كان يقال العلماء ثلاثة عالم بالله يخشى الله ليس بعالم بأمر الله وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله فذاك العالم الكامل وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشى الله فذلك العالم الفاجر.

قال أبوعبدالله: وإسناده صحيح.

وقال عبدالرزاق في "المصنف" برقم (٢٠٤٧٢) أخبرنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال العلماء ثلاثة رجل عاش بعلمه ولم يعش الناس معه ورجل عاش الناس بعلمه ولم يعش هو فيه ورجل عاش بعلمه وعاش الناس بعلمه.

وأخرجه الدارمي برقم (٣٦١): من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة به.

قال أبوعبدالله: إسناده صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" برقم (٣٥٦٩٨).

قال ابن أبي شيبة في "مصنفه" رقم (٣٥٣٢٠): حدثنا عفان قال حدثنا أبو عقيل بشير بن عقبة قال سمعت الحسن يقول: العلماء ثلاثة منهم عالم لنفسه، ولغيره فذلك أفضلهم وخيرهم، ومنهم عالم لنفسه فحسن ومنهم عالم لا لنفسه ولا لغيره فذلك شرهم.

وقال ابن معين في "تاريخه": حدثنا الأبار، عن سفيان، عن أبي حيان التيمي قال: العلماء ثلاثة: عالم بالله وبأمر الله، وعالم بالله وليس بعالم بأمر الله، وعالم

بأمر الله وليس بعالم بالله، فأما العالم بالله وبأمر الله فذاك الخائف لله العالم بسننه وحدوده وفرائضه، وأما العالم بالله وليس بعالم بأمر الله فذاك الخائف منه وليس بعالم بسننه ولا حدوده ولا فرائضه، وأما العالم بأمر الله وليس بعالم بالله فذاك العالم بسننه وحدوده وفرائضه وليس بخائف له. "رواية الدوري" (٣/ ٥٣٧)

وقال الغزالي رحمه الله تعالى في "إحياء علوم الدين" (١/ ٤٨): فالعلماء ثلاثة إما مهلك نفسه، وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها وإما مسعد نفسه وغيره، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق، وإقامة الجاه، **فانظر من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له فلا تظنَّ أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل.**

وقال ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (١١/ ٤٣): من له في الأمة لسان صدق عام بحيث يثنى عليه ويحمد في جماهير أجناس الأمة فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

وقال الزمخشري في "الكشاف" (١/ ١): اعلم أن متن كل علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة أو تقدم الصانع الصانع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة وإنما الذي تباينت فيه الرتب وتحاكت فيه الركب ووقع فيه الاستباق والتناضل وعظم فيه التفاوت والتفاضل حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد وترقى إلى أن عد ألف بواحد ما في العلوم

والصناعات من محاسن النكت والفقر ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم وإلا واسطتهم وفصهم وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم عناة في يد التقليد لا يمن عليهم بجز نواصيهم واطلاقهم.

وقال المناوي في " فيض القدير" (٥/ ٥٠٨): العلماء ثلاثة إما منقذ نفسه وغيره وهو الراغب إلى الله عن الدنيا ظاهرا وباطنا وإما مهلك نفسه وغيره وهو الداعي إلى الدنيا وإما مهلك نفسه منقذ غيره وهو من دعا إلى الآخرة ورفض الدنيا ظاهرا ولم يعمل بعلمه باطنا وهذا وعيد لمن كان له ذكر أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقال الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٧/ ١٥٣): كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولا لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، فهذا أيضا حسن، ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم، فلهم ما نووا: قال عليه السلام: < من غزا ينوي عقالا فله ما نوى > وترى هذا الضرب لم يستضيؤوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبا لهم، فما هؤلاء بعلماء ! وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار، وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار، وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئا كبيرا، وتضلعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخنا يقتدى به في العلم، فصاروا همجأ رعاعا، غاية المدرس منهم أن يحصل كتبا مثمنة يخزنها وينظر فيها يوما ما، فيصحف ما يورده ولا يقرره.

فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالم ولا رأيت عالما.

وقال الغزالي: الناس في طلب العلم ثلاثة رجل طلبه ليتخذه زادا إلى المعاد لم يقصد إلا وجه الله فهذا من الفائزين ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة وينال به الجاه والمال ومع ذلك يعتقد خسة مقصده وسوء فعله فهذا من المخاطرين فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه سوء الخاتمة وإن وفق لها فهو من الفائزين ورجل استحوذ عليه الشيطان فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الأتباع وهو مع ذلك يضمر أنه عند الله بمكان لاتسامه بسمة العلماء فهذا من الهالكين المغرورين إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين. "فيض القدير" (٦/ ٥٢)

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٣٤٤): العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذي نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل و يميل إلى الفسق ظنا إن العلم يدفع عنه و إنما هو حجة عليه، و أما المتوسطون و المشهورون فأكثرهم يغشى السلاطين و يسكت عن إنكار المنكر، و قليل من العلماء من تسلم له نيته و يحسن قصده، فمن أراد الله به خيرا رزقه حسن القصد في طلب العلم فهو يحصله لينتفع به و ينفع.

مصطلحات في معنى العالم

وهذا الفصل المقصود به ما أطلقه العلماء من بعض الألقاب على العالم نوردها في هذا الفصل لمعرفتها.

فمما يقال أن العالم يلقب **بالكرسي**، قال الطبري في "تفسيره " (٣/ ٦): يقال للعلماء الكراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال: أوتاد الأرض يعني بذلك أنهم العلماء الذين تصلح بهم الأرض ومنه قول الشاعر:

يحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسي بالأحداث حين تنوب

يعني بذلك: علماء بحوادث الأمور ونوازلها والعرب تسمي أصل كل شيء الكرسي.

ومما يلقب به العالم **الساحر**، قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٨٥) في قوله تعالى: {وقالوا يا أيها الساحر}: لما عاينوا العذاب قالوا: يا أيها الساحر نادوه بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم، وقيل: كانوا

يسمون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم، قال ابن عباس: {يأيها الساحر} يأيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيما، يوقرونه ولم يكن السحر صفة ذم.

ويقال عليهم **القراء**، قال العيني في "عمدة القاري" (٢٥/ ٢٩): قوله < يا معشر القراء > المراد بهم العلماء بالقرآن والسنة والعباد، وكان في الصدر الأول إذا أطلقوا القراء أرادوا بهم العلماء.

وقال النسفي في تفسيره (٣/ ١٩٥): قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم لأنك تشهد بأنه مساهم لهم في العلم.

وقال صاحب "التنوير والتحبير" (١ / ٧٠): إن العلم نوعان علم اصطلاحي وعلم حقيقي فأما الاصطلاحي فهو ما تواضع الناس في عصر من الإعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار وهذا النوع لا تخلو عنه أمة.

وأما العلم الحقيقي فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلاً وآجلاً.

ألقاب لأهل العلم

قد اشتهرت بعض الألقاب في إطلاقها على العلماء ومنها ما هو مشروع مستساغ ومنها ما يحصل به المبالغة البينة في إطلاق مثل تلك الألقاب، وقد تطلق تلك الألقاب على من كان عنده انحراف في دينه ومنهجه، ولكن

اشتهر بمثل ذلك، وإني ذاكر هنا ما ذكره القلقشندي في "صبح الأعشى" من الألقاب التي تقال في حق العلماء:

قال القلقشندي رحمه الله تعالى في "الصبح الأعشى" (٥/ ٤٣٦): **ألقاب القضاة والعلماء:**

المحدث: والمراد به من يتعاطى علم حديث النبي – صلى الله عليه سلم- بطريق الرواية والدراية والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد.

المدرس: وهو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف، وهو مأخوذ من درست الكتاب دراسة إذا كررته للحفظ.

الأثير: بالثاء المثلثة من ألقاب أرباب الأقلام من القضاة والعلماء.

الإمام: من ألقاب الخلفاء كما يقال في المكاتبات عنهم من عبد الله ووليه الإمام الفلاني وقد تقدم أن أول من تلقب به إبراهيم بن محمد أول من بويع له بالخلافة من بني العباس ويقع أيضا في ألقاب أكابر العلماء وأصل الإمام في اللغة الذي يقتدى به ولذلك وقع على المجتهدين كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة وهم الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد.

الحبر: من ألقاب أكابر العلماء وهو بفتح الحاء وكسرها لغتان والذي اختاره ابن قتيبة في أدب الكاتب الكسر وبه سمي الحبر الذي يكتب به، ولكن الجاري على السنة الناس الفتح.

الحجي: بضم الحاء وكسر الجيم المشددة وفي الآخر ياء النسب من ألقاب أكابر القضاة والعلماء.

الخاشع: من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح وربما استعمل في العلماء.

الرُحلة: بضم الراء من ألقاب أكابر العلماء والمحدثين والرحلة في اللغة ما يرحل إليه، لقب بذلك لأنه في حيز أن يرحل إليه للأخذ عنه.

الرئيس: بالهمزة على وزن فعيل من ألقاب علية الناس وأشرافهم، ويقال فيه: ريس على وزن قيم قاله الجوهري، وأصله من الرياسة وهي رفعة القدر وعلو الرتبة والرئيسي نسبة إليه للمبالغة وغالب ما يستعمله الكتاب كذلك وهو من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء.

الشيخ: من ألقاب العلماء والصلحاء، وأصله في اللغة الطاعن في السن، ولقب به أهل العلم والصلاح توقيراً لهم كما يوقر الشيخ الكبير.

العالم: من ألقاب السلطان وهو خلاف الجاهل ثم هو في الحقيقة إنما هو من ألقاب العلماء إلا أنهم نعتوا به الملوك تعظيما إذ العلم كل أحد يزاحم على الاتصاف به والعالمي نسبة إليه للمبالغة وهو من الألقاب المشتركة في الاصطلاح بين أرباب السيوف والأقلام وإن كان المختص بها في الحقيقة العلماء.

العلامة: بالتشديد من ألقاب أكابر العلماء، قال الجوهري: وهو العالم للغاية، وقل أن يستعملوه إلا في ألقاب المكتوب بسببه ونحو ذلك وحذف

الهاء منه لغة وليست بمستعملة بين الكتاب أصلا، والعلامي نسبة إلى العلام أو العلامة للمبالغة قال في عرف التعريف ويختص بالمفتي.

الفقيه: من ألقاب العلماء وهو اسم فاعل من فقه بضم القاف إذا صار الفقه له سجية ككرم إذا صار الكرم له سجية، قال المسيلي في "شرح مختصر ابن الحاجب" وإنما يقع على المجتهد... وهو مستعمل في ألقاب العلماء.

الفريدي: من ألقاب أكابر العلماء، وهو نسبة إلى الفريد بمعنى المنفرد للمبالغة والمراد المنفرد بما لم يشاركه فيه غيره ولم يستعملوه مجردا عن ياء النسب.

القدوة: بكسر القاف وضمها لغة من ألقاب العلماء والصلحاء وهو بمعنى الأسوة يقال فلان قدوة يقتدى به، والقدوي نسبة إليه للمبالغة.

المجتهد: من ألقاب العلماء والمراد به في الأصل من يستنبط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

المحقق: من ألقاب العلماء.

المدقق: من ألقاب العلماء وهو الذي ينعم النظر في المسائل ويدققه.

المفيد: من ألقاب العلماء، وهو اسم فاعل من الإفادة وهي إنالة الشخص ما لم يكن حاصلا عنده.

الألقاب المركبة التي تطلق في حق العلماء

إمام الأئمة: من ألقاب العلماء، وربما قيل إمام الأئمة في العالمين.

أوحد العلماء الأعلام: من ألقاب العلماء، وربما قيل أوحد العلماء في العالمين.

بركة الأنام: من ألقاب الصلحاء وقد تستعمل للعلماء أيضا.

بقية السلف: من ألقاب العلماء والصلحاء، وربما قيل بقية السلف الصالح، أو بقية السلف الكرام، والمراد بالسلف الآباء المتقدمون أخذا من قولهم سلف إذا مضى، وربما أطلق على من تقدم في صدر الإسلام من الصحابة والتابعين.

تاج العلماء: من ألقاب القضاة والتاج ما يوضع على الرأس وهو معروف.

جمال الإسلام: من ألقاب العلماء.

جمال الأئمة: من ألقاب العلماء.

جمال الفضلاء: من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكتاب وربما قيل جمال الفضلاء المفيدين ونحو ذلك ويختص حينئذ بالعلماء.

جمال أهل الإفتاء: من ألقاب أكابر العلماء.

جلال العلماء في العالمين: من ألقاب أهل العلم وربما قيل جلال العلماء العالمين.

حجة الأئمة: من ألقاب أكابر العلماء، والأئمة جمع إمام وقد تقدم أنه الذي يقتدى به.

حجة المذاهب: من ألقاب أكابر العلماء، وربما قيل حجة المذهب إذا أريد مذهبه خاصة وهو دون الأول.

حجة المفتين: من ألقاب أكابر العلماء، والمراد بالمفتين من هم أهل للفتوى في الأحكام الشرعية.

خالصة الإمام: وربما جعل من ألقاب العلماء.

داعي الدعاة بالبراهين الظاهرة إلى استعلام الحقائق: من ألقاب العلماء.

ذخر الدولة: من ألقاب أرباب السيوف وقد يقع في ألقاب الصلحاء والعلماء.

رحلة المحصلين: من ألقاب العلماء والمراد من يرحل إليه لتحصيل.

رحلة الوقت: من ألقاب العلماء، والمراد من انفرد في الوقت بالرحيل إليه لأخذ العلم عنه.

زين الأئمة: من ألقاب العلماء وربما قيل زين الأئمة العلماء.

سيف الحق: من ألقاب العلماء وأهل النظر.

سيف المناظرين: من ألقاب العلماء، والمراد بالمناظرين أهل البحث والجدل أخذا من النظر وهو الفكر المؤدي إلى الدليل.

شرف العلماء العاملين: من ألقاب أكابر العلماء كقضاة القضاة ونحوهم وربما قيل شرف العلماء في العالمين.

شمس الأفق: من ألقاب أكابر أرباب الأقلام، وهو بالعلماء أليق.

صدر المدرسين: من ألقاب العلماء.

صدر مصر والشام: من ألقاب أكابر العلماء كقضاة القضاة ونحوهم وإنما خص هذان القطران بالذكر لكثرة علمائهما وربما قيل صدر مصر والعراق والشام وربما اقتصر على صدر الشام فقط إذا كان برسم وظيفة في الشام ونحو ذلك.

صلاح الإسلام: من ألقاب الصوفية والعلماء.

صلاح الملة: من ألقاب العلماء والصلحاء.

ضياء الإسلام: من ألقاب العلماء والصلحاء، وربما قيل ضياء الإسلام والمسلمين.

علم العلماء الأعلام: من ألقاب أكابر أهل العلم.

علم الهداة: من ألقاب إمام الزيدية باليمن ويصلح لأكابر العلماء والصلحاء والهداة جمع هاد وهو المرشد.

علم الأعلام: من ألقاب العلماء والصلحاء.

عماد المحدثين: من ألقاب علماء الحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام.

علاء الإسلام والمسلمين: من ألقاب العلماء والصلحاء.

فخر المدرسين: من ألقاب العلماء.

فخر المفيدين: من ألقاب العلماء أيضا.

قدوة الخلف: من ألقاب العلماء، وأهل الصلاح والخلف في اللغة الذي يجيء بعد غيره ويقوم مقامه والمراد خلف من سلف من علماء الأمة أو صالحيها.

قدوة العباد: من ألقاب أهل الصلاح، وربما قيل قدوة العباد والزهاد أو نحو ذلك قدوة العلماء من ألقاب أكابر أهل العلم وربما قيل قدوة العلماء العالمين ونحو ذلك.

قدوة الفرق: من ألقاب العلماء والمراد فرق أهل الحق من أرباب المذاهب والعقائد الصحيحة.

قدوة الفضلاء: من ألقاب أكابر العلماء والفضلاء جمع فاضل وهو خلاف الناقص.

قدوة المجتهدين: من ألقاب كبار العلماء، وقد تقدم في الألقاب أن الاجتهاد عبارة عن استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

قدوة المحققين: من ألقاب أكابر العلماء وقد تقدم معنى التحقيق.

قدوة المشتغلين: من ألقاب أهل العلم والمراد الاشتغال بالعلم.

كنز الطالبين: من ألقاب العلماء.

كنز العلماء: من ألقاب أهل العلم وربما قيل كنز المفسرين أو كنز المتفقهين.

لسان المتكلمين: من ألقاب العلماء.

مذل البدعة: من ألقاب علماء السنة.

مذل حزب الشيطان: من ألقاب العلماء والصلحاء والحزب الطائفة.

معز السنة: من ألقاب العلماء والسنة خلاف البدعة.

مفتي المسلمين: من ألقاب العلماء.

مفيد الطالبين: من ألقاب العلماء.

مؤيد الملة: من ألقاب العلماء.

ناصر السنة: من ألقاب العلماء.

ناصر الشريعة: من ألقاب العلماء. وكل هذه الألقاب كما أشرنا من قبل أنها بين مسلم وغير مسلم به من حيث الغلو في بعضها، والله المستعان.

منزلة العلماء عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم

كان العالم أرفع منزلة عند الله كما قال تعالى {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة:١١] وأحق من تنزل له هذه المنزلة هم علماء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال شيخنا العلامة الوادعي رحمه الله في كتابه "غارة الأشرطة" (١/ ٣٥): فالعلماء منزلتهم رفيعة يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد} فهذا دليل على أن أهل العلم يرون الحق حقاً ويرون الباطل باطلاً.

وقال ابن القيم في "هداية الحيارى" على منزلة علماء الصحابة (١/ ١٢٩): ثم نقول وما يدريكم معاشر المثلثة وعباد الصلبان وأمة اللعنة والغضب بالفقه والعلم ومسمي هذا الاسم حيث تسلبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنبياء بني إسرائيل، وهل يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقادير العلماء إلا من هو من جملتهم ومعدود في زمرتهم فأما طائفة شبه الله علماءهم بالحمير التي تحمل أسفارا وطائفة علماؤها يقولون في الله ما لا ترضاه امة من الأمم فيمن تعظمه وتجله وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتر على الله وعلى أنبيائه فمثلها مثل عريان يحارب شاكي السلاح ومن سقف بيته زجاج وهو يزاحم أصحاب القصور بالأحجار ولا يستكثر على من قال في الله ورسوله ما قال أن يقول في أعلم الخلق أنهم عوام. اهـ

قلت: ثم يسمو من هذه الأمة من كان من العلماء المتمسكين بالكتاب والسنة وحرص على العمل بهما والدعوة إليهما والصبر على تبليغهما.

وقال العيني في "عمدة القاري" (٢/ ٣): عند تبويب البخاري باب: [فضل العلم]: المراد من باب فضل العلم هنا التنبيه على فضيلة العلماء بدليل الآيتين المذكورتين فإنهما في فضيلة العلماء، ...فإن قلت كان ينبغي أن يقول باب فضل العلماء؟ قلت: بيان فضل العلم يستلزم بيان فضل العلماء؛ لأن العلم صفة قائمة بالعالم فذكر بيان فضل الصفة يستلزم بيان فضل من هي قائمة به على أنا نقول إن لم يكن المراد من هذا الباب بيان فضل العلماء لا يطابق ذكر الآيتين المذكورتين الترجمة ولهذا قال الشيخ قطب الدين رحمه الله في "شرحه" بعد الآيتين: جاء في الآثار أن درجات العلماء تتلو درجات الأنبياء والعلماء ورثة الأنبياء ورثوا العلم وبينوه للأمة وحموه من تحريف الجاهلين وروى ابن وهب عن مالك قال سمعت زيد بن أسلم يقول في قوله تعالى {نرفع درجات من نشاء} [الأنعام: ٨٣] قال بالعلم.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى {يرفع الله الذين آمنوا منكم} [المجادلة: ١١] مدح الله العلماء في هذه الآية والمعنى يرفع الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا فقط ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به، وقيل: يرفعهم في الثواب والكرامة، وقيل: يرفعهم في الفضل في الدنيا والمنزلة، وقيل: يرفع الله درجات العلماء في الآخرة على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم. اهـ المراد

وقال عند تبويب البخاري (٢/ ٤) [باب: من سئل علما وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل] وهذا الباب فيه حال العالم المسئول منه عن مسألة معضلة ولا يسأل عن المسائل المعضلات إلا العلماء الفضلاء

العاملون الداخلون في قوله تعالى {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} [المجادلة: ١١].

وقال المناوي "فيض القدير" (٤/ ٣٧٠): قال الرازي : قد دل على فضل العلماء والعلم وشرفه المعقول والمنقول فمن الشواهد العقلية أن كون العلم صفة كمال والجهل صفة نقص معلوم للعقلاء ضرورة ولذلك لو قيل للعالم يا جاهل تأذى به ولو قيل للجاهل يا عالم فرح وإن علم كذب القائل وقد وقر في طباع الحيوانات الانقياد للإنسان لكونه أعلم منهم وفي طباع الناس كل طائفة منقادة للأعلم منها وتعظمه والعالم يطير في أقطار الملكوت. اهـ

وقال العيني في "عمدة القاري": هذا في المعنى عطف على قوله تعالى {فاعلم أنه لا إله إلا الله} [محمد: ١٩] المعنى إنما يخاف الله من عباده العلماء أي من علم قدرته وسلطانه وهم العلماء قاله ابن عباس.

وقال ابن كثير: قول الله تعالى { فمنهم ظالم لنفسه } فقال : هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة.

وقال الشوكاني في "فتح القدير" (٤/ ٤٩٥): ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم قد شرفهم الله على سائر العباد وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم.

وقال صاحب "التحرير والتنوير" (١ / ٢٤١): وفي هذه الآية منزع بديع لتعظيم شأن العلم وجدارة العلماء بالتعظيم والتبجيل لأن الله لما علم آدم علما لم يؤهل له الملائكة كان قد جعل آدم أنموذجا للمبدعات والمخترعات والعلوم التي ظهرت في البشر من بعد والتي ستظهر إلى فناء هذا العالم.

وقال الجصاص في "أحكام القرآن" (٥/ ٢٤٧): في قوله تعالى {إنما يخشى الله من عباده العلماء} فيه الإبانة عن فضيلة العلم وأن به يتوصل إلى خشية الله وتقواه لأن من عرف توحيد الله وعدله بدلائله أوصله ذلك إلى خشية الله وتقواه إذ كان من لا يعرف الله ولا يعرف عدله وما قصد له بخلقه لا يخشى عقابه ولا يتقيه وقوله في آية أخرى {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} وقال تعالى {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية} إلى قوله {ذلك لمن خشي ربه} خبر إن خير البرية من خشي ربه وأخبر في الآية أن العلماء بالله هم الذين يخشونه فحصل بمجموع الآيتين أن أهل العلم بالله هم خير البرية وإن كانوا على طبقات في ذلك ثم وصف أهل العلم بالله الموصوفين بالخشية منه فقال {إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور} فكان ذلك في صفة الخاشعين لله العاملين بعلمهم وقد ذكر في آية أخرى المعرض عن موجب علمه فقال {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} إلى آخر القصة فهذه صفة العالم غير العامل والأول صفة العالم المتقي لله وأخبر عن الأولين بأنهم واثقون بوعد الله وثوابه على أعمالهم بقوله تعالى {يرجون تجارة لن تبور}.

وقال النووي في "التبيان في آداب حملة القرآن" (١/ ١١): وعن الإمامين الجليلين أبي حنيفة و الشافعي رضي الله عنهما قالا : إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي.

وقال اللالكائي في "كرامات الأولياء" (١/ ١٤٥): أخبرنا محمد بن رزقويه أنا أبو سهل بن زياد ثنا عبد الكريم ثنا أبو اليمان ثنا جرير عن غيلان الفزاري عن أبي قتيلة أنه كان يقول اتقوا فراسة العلماء فإنه حق يجعله الله تعالى على أبصارهم وفي قلوبهم.

وقال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله : اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاء الله تعالى قبل موته بموت القلب {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}.

وقال ابن الجوزي في "تلبيس إبليس" (١/ ١٩٥): ومن تلبيسه على الزهاد احتقارهم العلماء وذمهم إياهم فهم يقولون المقصود العمل ولا يفهمون أن العلم نور القلب ولو عرفوا مرتبة العلماء في حفظ الشريعة وأنها مرتبة الأنبياء لعدوا أنفسهم كالبكم عند الفصحاء والعمي عن البصراء والعلماء أدلة الطريق والخلق وراءهم وسليم هؤلاء يمشي وحده.

وقال ابن الجوزي في "التذكرة في الوعظ" (١/ ٥٥): [فضل العلم والعلماء]: من أحب أن يكون للأنبياء وارثا وفي مزارعهم حارثا فليتعلم العلم النافع وهو علم الدين ففي الحديث العلماء ورثة الأنبياء وليحضر مجالس

العلماء فإنها رياض الجنة ومن أحب أن يعلم ما نصيبه من عناية الله فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله ففي الحديث < من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين > ومن سأل عن طريق تبلغه الجنة فليمش إلى مجلس العلم ففي الحديث < من سلك طريقا يلتمس فيها علما سلك الله به طريقا إلى الجنة > ومن أحب ألا ينقطع عمله بعد موته فلينشر العلم بالتدوين والتعليم ففي الحديث < إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له > وفي الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه < إذا مات العالم انثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف مثله >.

منزلة العلماء يوم القيامة

وفي الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم: < معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة > أي بخطوة، قال في "القاموس" والرتوة: الخطوة، وشرف من الأرض وسويعة من الزمان والدعوة والفطرة ورمية بسهم أو نحو ميل أو مدى البصر والراتي العالم الربانى. انتهى

وقال في النهاية: أنه يتقدم العلماء برتوة أي برمية سهم، وقيل: بميل وقيل: مد البصر، وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث.

وقال ابن كثير عند قوله {وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا} وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حيث يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة زمرا أي جماعة بعد جماعة : المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء والصديقون مع أشكالهم

والشهداء مع أضرابهم والعلماء مع أقرانهم وكل صنف مع صنف كل زمرة يناسب بعضها بعضا.

العلماء الراسخون وثناء الله عزوجل عليهم

قال الله تعالى في كتابه الكريم {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً }[النساء:١٦٢]

قال أبو جعفر: يعني بالراسخين في العلم العلماء الذين قد أتقنوا علمهم ووعوه فحفظوه حفظا لا يدخلهم في معرفتهم وعلمهم بما علموه شك ولا لبس.

وأصل ذلك من: رسوخ الشيء في الشيء وهو ثبوته وولوجه فيه، يقال منه: رسخ الإيمان في قلب فلان فهو يرسخ رسخا ورسوخا.

وقال ابن كثير في قوله تعالى {وما يذكر إلا أولو الألباب} أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة.

وقال ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (١/ ٩٤): قال نافع بن زيد يقال الراسخون في العلم المتواضعون لله والمتذللون لله في مرضاته لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم ويشهد لهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم < أتاكم أهل اليمن هم أبر قلوبا وأرق أفئدة الإيمان

يماني والفقه يماني والحكمة يمانية > وهذا إشارة منه إلى أبي موسى الأشعري ومن كان على طريقه من علماء أهل اليمن ثم إلى مثل أبي موسى الخولاني وأويس القرني وطاوس ووهب بن منبه وغيرهم من علماء أهل اليمن.

وكل هؤلاء من العلماء الربانيين الخائفين لله فكلهم علماء بالله يخشونه ويخافونه وبعضهم أوسع علما بأحكام الله وشرائع دينه من بعض ولم يكن تمييزهم عن الناس بكثرة قيل وقال ولا بحث ولا جدال وكذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه أعلم الناس بالحلال والحرام وهو الذي يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة ولم يكن علمه بتوسعة المسائل وتكثيرها بل قد سبق عنه كراهة الكلام فيما لا يقع وإنما كان عالما بالله وعالما بأصول دينه رضي الله عنه وقد قيل للإمام أحمد من نسأل بعدك قال عبدالوهاب الوراق قيل له إنه ليس له اتساع في العلم قال إنه رجل صالح مثله يوفق لإصابة الحق وسئل عن معروف الكرخي فقال كان معه أصل العلم خشية الله وهذا يرجع إلى قول بعض السلف: كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا.

العالم الرباني

قال الأصمعي والإسماعيلي: الرباني نسبة إلى الرب أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل. "مفتاح دار السعادة" (١/ ١٢٤)

وقال المروزي: قيل لأبي عبدالله: قيل لابن المبارك: كيف تعرف العالم الصادق؟ قال: الذي يزهد في الدنيا ويقبل على آخرته.

فقال أبوعبدالله: نعم هكذا يريد أن يكون.

وقال الشاطبي في "الموافقات" (١/ ٩٢): من شروطهم في العالم بأي علم اتفق أن يكون عارفاً بأصوله وما يبنى عليه ذلك العلم قادراً على التعبير عن مقصوده فيه عارفاً بما يلزم عنه قائماً على دفع الشبه الواردة عليه فيه. اهـ

وقال الشاطبي في "الاعتصام" (٢/ ٨٦٠): لا يتبع أحد من العلماء إلا من حيث هو متوجه لشريعة قائم بحجتها حاكم بأحكامها جملة وتفصيلاً.

وقال العلامة النعمي في "معارج الألباب" ص(١٦٣): من يقيم البرهان على ما طلب منه أن يفتي فيه ويستطيع الاستدلال الصحيح بالكتاب والسنة وأخذ الحكم من دليله حتى يشفي سائله من سقامه ويروي صاديه من غليل أوامه.

وقال ابن جرير في قوله عز وجل: {ولكن كونوا ربانيين} فالربانيون إذا هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد : وهم فوق الأحبار؛ لأن الأحبار هم العلماء، و الرباني: الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

وقال القرطبي: فمعنى الرباني: العالم بدين الرب الذى يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم، وقال أبو رزين: الرباني هو العالم الحكيم، وروى شعبه عن عاصم عن زرعن عبد الله بن مسعود: {ولكن كونوا ربانين} قال: حكماء علماء. وقال ابن جبير: حكماء أتقياء، و قال ابن زيد: الربانيون الولاة و الأحبار العلماء. وقال مجاهد: الربانيون فوق الأحبار،

قال النحاس: و هو قول حسن لأن الأحبار هم العلماء و الرباني الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة.

وقال ابن حجر في "فتح الباري" (١/ ١٢١): قوله الربانيون، أي: العلماء، قيل: سموا بذلك لعلمهم بالرب سبحانه وتعالى، وقيل الرباني الذي يربى الناس بصغار العلم قبل كباره، أي بالتدريج، وقيل غير ذلك.

وجوب طاعة العلماء

قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} وأولي الأمر هم العلماء والأمراء، فتعين من هذا طاعتهم بالمعروف ما لم يأمروا بمعصية لأنه لا طاعة في معصية الخالق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٣/ ٢٥٠): والله سبحانه قد أمر في كتابه عند تنازع الأمة بالرد إلى الله ورسوله لم يأمر عند التنازع إلى شيء معين أصلا وقد قال الأئمة إن أولي الأمر صنفان: العلماء والأمراء، وهذا يدخل فيه مشايخ الدين وملوك المسلمين كل منهم يطاع فيما إليه من الأمر كما يطاع هؤلاء بما يؤمرون به من العبادات ويرجع إليهم في معاني القرآن والحديث والإخبار عن الله وكما يطاع هؤلاء في الجهاد وإقامة الحد وغير ذلك مما يباشرونه من الأفعال التي أمرهم الله بها.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ٣٨٥): وفي الغيلانات إذا خلا الزمن عن سلطان ذي كفاءة فالأمور موكولة إلى العلماء ويلزم الأمة الرجوع إليهم

ويصيرون ولاة فإن عسر جمعهم على واحد استقل كل قطر بإتباع علمائه فإن كثروا فالمتبع أعلمهم فإن استووا أقرع. اهـ

قال أبو عبدالله: وقد يقيم بعض العلماء بعض الأحكام الشرعية وذلك لما ولاهم الله سبحانه من وجوب طاعتهم كما جاء عن بعض الأئمة، قال السمهودي: وهذا من حيث انعقاد الولاية الخاصة فلا ينافي وجوب طاعة العلماء مطلقا فاندفع ما للسبكي هنا وكان الإمام مالك يمتنع من الولايات فيحبس ويعزر ومع ذلك يمتثل أمره وكذا الشافعي فقد روى البيهقي كان الشافعي عطرا وكان به باسور فكان يمسح الاسطوانة التي يجلس عليها بغالية فعمد شخص إلى شاربه فلطخه قذرا وجاء حلقة الشافعي فقال : ما حملك على ذلك قال : رأيت تجبرك فأردت التواضع فأمر باعتقاله حتى انصرف فضربه ثلاثين أو أربعين وقال : هذا بما تخطيت المسجد بالقذر.

وقال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (١/ ١٣٧): العلم يكسب العالم الطاعة في حياته أي يجعله مطاعا لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل احد للملوك فمن دونهم فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله، فيجب على الخلق طاعته قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} وفسر أولى الأمر: بالعلماء، قال ابن عباس: هم الفقهاء، والعلماء: أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم اوجب الله تعالى طاعتهم، وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك أحدى الروايتين عن الأمام احمد وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد إحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد والآية تتناولها جميعا فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما جاء به الرسول

العامل به أطوع في أهل الأرض من كل احد فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء.

وقال ابن كثير: عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال < من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني > فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى {أطيعوا الله} أي اتبعوا كتابه {وأطيعوا الرسول} أي خذوا بسنته {وأولي الأمر منكم} أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله كما تقدم في الحديث الصحيح < إنما الطاعة في المعروف >.

منزلة العلماء عند الأمراء والحكام

ينال العالم منزلة رفيعة عند الأمراء والحكام حين يزهد فيما عندهم وينزه نفسه عما في أيديهم مع قول الحق والنصح لهم فحين ذاك يحتاجون إليك عند ملمات الأمور ونكبات الدهور.

قال شيخنا العلامة الوادعي رحمه الله تعالى في "غارة الأشرطة" (٢/ ٣٧): العلماء يجب أن يرجع إليهم الملوك والرؤساء {وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم} الواجب ألا يبتوا في أمر حتى يسالوا العلماء.

وقال ابن عبدالبر في "التمهيد" (٨/ ٣٦٨) عند قصة عمر عند رجوعه من أرض الطاعون: والحاكم إذا نزلت به نازلة لا أصل لها في الكتاب ولا في السنة كان عليه أن يجمع العلماء وذوي الرأي ويشاورهم.

وقال في "الاستذكار" (١/ ٣٣-٣٤): فيه ما كان عليه العلماء من صحبة الأمراء، وكان عمر بن عبد العزيز يصحبه جماعة من العلماء منهم رجاء بن حيوة، وابن شهاب، وعروة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وأخلق بالأمير إذا صحب العلماء أن يكون عدلا فاضلا....كانوا يقولون خير الأمراء من صحب العلماء وشر العلماء من صحب الأمراء إلا من قال بالحق وأمر بالمعروف وأعان الضعيف.

وقال ابن حجر في "فتح الباري" (٢/ ٦): وفي الحديث – أي قصة عمر بن عبدالعزيز مع عروة- من الفوائد دخول العلماء على الأمراء وإنكارهم عليهم ما يخالف السنة.

وقال في "فتح الباري" (٢/ ٤٥٠): عند قصة إنكار أبي سعيد على الأمير: وفيه إنكار العلماء على الأمراء إذا صنعوا ما يخالف السنة.

وقال عند قصة حج ابن عمر مع الحجاج في "فتح الباري" (٣/ ٥١٢): وفيه أن إقامة الحج إلى الخلفاء وأن الأمير يعمل في الدين بقول أهل العلم ويصير إلى رأيهم، وفيه مداخلة العلماء السلاطين وأنه لا نقيصة عليهم في ذلك.

وقال في "فتح الباري" (٤/ ١٤٨) عند حديث الاحتلام في نهار رمضان: وفي هذا الحديث من الفوائد: دخول العلماء على الأمراء ومذاكرتهم إياهم بالعلم.

وقال اللالكائي: أخبرنا عبد العزيز بن علي الأزجي قال ثنا أبو بكر محمد بن أحمد الجرجرائي أجازة قال ثنا أحمد بن خالد النحوي الكاتب قال ثنا أحمد بن علي بن مهران قال ثنا الوليد بن هشام عن أبيه قال بلغ هشام بن عبد الملك أن رجلا قد ظهر يقول بالقدر وقد أغوى خلقاً كثيرا فبعث إليه هشام فاحضره، فقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: وما هو؟ قال: تقول إن الله لم يقدر على خلق الشر؟ قال: بذلك أقول فاحضر من شئت يحاجني فيه، فإن غلبته بالحجة والبيان علمت أني على الحق وإن هو غلبني بالحجة فأضرب عنقي، قال: فبعث هشام إلى الأوزاعي فاحضره لمناظرته.

فقال له الأوزاعي: إن شئت سألتك عن واحدة وإن شئت عن ثلاث وإن شئت عن أربع؟ فقال: سل عما بدا لك.

قال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل هل تعلم أنه قضى على ما نهى؟ قال: ليس عندي في هذا شيء، فقلت: يا أمير المؤمنين هذه واحدة، ثم قلت له: أخبرني هل تعلم أن الله حال دون ما أمر؟ قال: هذه أشد من الأولى، فقلت: يا أمير المؤمنين هذه اثنتان، ثم قلت له: هل تعلم أن الله أعان على ما حرم؟ قال: هذه أشد من الأولى والثانية، فقلت: يا أمير المؤمنين هذه ثلاث قد حل بها ضرب عنقه، فأمر به هشام فضربت عنقه.

ثم قال: للأوزاعي يا أبا عمر فسر لنا هذه المسائل؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، سألته هل يعلم أن الله قضى على ما نهى، نهى آدم عن آكل الشجرة ثم قضى عليه فأكلها، وسألته هل يعلم أن الله قضى حال دون ما أمر؟ أمر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود، وسألته هل يعلم أن الله أعان على ما حرم؟ حرم الميتة والدم ثم أعاننا على أكله في وقت الاضطرار إليه.

قال هشام: والرابعة ما هي يا أبا عمرو؟ قال: كنت أقول مشيئتك مع الله أم دون الله؟ فإن قال: مع الله فقد اتخذ الله شريكا، أو قال دون الله، فقد انفرد بالربوبية، فأيهما أجابني فقد حل ضرب عنقه بها.

قال هشام: **حياة الخلق وقوام الدين بالعلماء.**

وقال الشوكاني في "فتح القدير" (١/ ٥٩٣): قال ابن خوزمنداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها وحكى القرطبي عن ابن عطية أنه لا خلاف في وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين.

وقال ابن عبدالبر في "الاستذكار" (٣/ ١٦٣) معلوم عند جماعة العلماء أن عمر بن عبد العزيز كان لا ينفذ كتابا ولا يأمر بأمر ولا يقضي بقضية إلا عن رأي العلماء الجلة ومشاورتهم والصدر عما يجمعون عليه ويذهبون إليه ويرونه من السنن المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه

المهتدين بهديه المقتدين بسنته وما كان ليحدث في دين الله ما لم يأذن الله له به مع دينه وفضله.

وجوب أخذ العالم للحق والصبر عليه

إن الله تعالى أوجب على الناس العمل بكتابه والأخذ به والأخذ بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى { وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } أولى الناس امتثالا هم العلماء لأنهم علموا ما لم يعلم غيرهم من شدة الوعيد التخويف فيمن تر ما أمر الله من الشرع وكيف فعل لله بالأمم السالفة حين لم تنقاد لأنبياء الله ولم تأخذ بالحق الذي جاءوا به، ولذلك يذم عند الناس أن لا يأخذ الإنسان بأمر الله فكيف بالعالم الذي تحتم الأخذ منه بما أمر الله تعالى وبما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، وبقبول الحق من أين كان ولا يجوز له رده.

قال الخطابي في "أعلام الحديث" (١/ ٢١٨): لو زال الاختلاف بأن ينص كل شيء باسمه تحليلاً وتحريمًا لارتفع الامتحان وعدم الاجتهاد في طلب الحق ولاستوى الناس في رتبة واحدة وبطلت فضيلة العلماء على غيرهم.

وقال ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٢/ ٢٤): قال أبو عمرو بن أبي الحسن الطوسي قال بعثني أبي إلى ابن الأعرابي لأقرأ عليه أشعارا وكنت معجبا بشعر أبي تمام فقرأت عليه من أشعار هذيل ثم قرأت عليه أرجوزة لأبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل:

وعاذل عذلته في عذله ..... فظن أني جاهل لجهله

حتى أتممتها، فقال: اكتب لي هذه فكتبتها ثم قلت له أحسنة هي؟ قال: ما سمعت بأحسن منها، قلت: لأنها لأبي تمام، قال: حرق، حرق!

قال ابن المعتز: وهذا الفعل من العلماء مفرط القبح؛ لأنه يجب أن لا يدفع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا وان تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع. اهـ

قال أبوعبدالله: وليس القول بالحق والصدع به يكون من عدم احترام المنصوح أو من التهجم عليه وعدم بره، بل ذلك حقيقة المحبة وإرادة الخير له ومن كمال بره به وخوفه عليه.

قال ابن رجب في "الفرق بين النصيحة والتعيير" ص(٢٠): الإحاطة بالعلم من غير شذوذ شيء منه ليس هو مرتبة أحد منهم أي العلماء ولا ادعاه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين فلهذا كان السلف المجمع على علمهم وفضلم يقبلون الحق ممن أوردوه عليهم وإن كان صغيراً ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر.

وقال الآجري في "أخلاق العلماء" ص(٣٧): وإن أفتى بمسألة فعلم أنه أخطأ لم يستنكف أن يرجع عنها وإن قال قولاً فرد عليه غيره ممن هو أعلم منه أو مثله أو دونه فعلم أن القول كذلك رجع عن قوله وحمده على ذلك وجزاه خيراً.

وقال المبرد في المزهر في "علوم اللغة" (٢/ ٣٢٠): إن الذي يغلط ثم يرجع لا يعد ذلك خطأ لأنه قد خرج منه برجوعه عنه، وإنما الخطأ البين الذي يصر على خطأه ولا يرجع عنه فذلك يعد كذاباً ملعوناً.

وقال صاحب "التحرير والتنوير" (١ / ١٣٣٤): المجاهرة بالحق دون سب ولا اعتداء لا تنافي البرور، ولم يزل العلماء يخطئون أساتذتهم وأئمتهم وآباءهم في المسائل العلمية بدون تنقيص. اهـ

قال أبوعبدالله: العالم وغير العالم تنفر من عدم قبول الحق وتزدري كل من رد الحق أو توانى في أخذه، لأن بعدم أخذه للحق يكون قد أهدر حقوقاً عليه للعباد.

قال ابن بطة في "الإبانة" (٢/ ٥٤٧): فاعلم يا أخي أن من كره الصواب من غيره ونصر الخطأ من نفسه لم يؤمن عليه أن يسلبه الله إيمانه لأن الحق من رسول الله إليك وافترض عليك طاعته فمن سمع الحق أنكره بعد علمه له فهو من المتكبرين على الله ومن نصر الخطأ فهو من حزب الشيطان.

وقال ابن القيم في "البدائع" (٣/ ١٨٠): حذاري حذاري من أمرين لهما عواقب سوء الأول: رد الحق لمخالفت هواه فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأسًا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

وقال المعلمي في "التنكيل" (٢/ ٢٠١): فأما من كره الحق واستسلم للهوى فإنما يستحق أن يزيده الله ضلالاً.

وذكر ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم" (٢٢٦) عن الفضيل: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه. اهـ

وقال ابن حجر في "فتح الباري" (١/ ٢١٩): عند قصة موسى مع الخضر: قوله < كذب عدو الله > قال بن التين: لم يرد بن عباس إخراج نوف عن ولاية الله ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه وحقيقته غير مراده.

قلت- أي ابن حجر: وأما تكذيبه فيستفاد منه أن للعالم إذا كان عنده علم بشيء فسمع غيره يذكر فيه شيئا بغير علم أن يكذبه ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم كذب أبو السنابل أي أخبر بما هو باطل في نفس الأمر. اهـ

وقال الغزالي: فعلى العلماء العدل والقيام بنواميس الشريعة والصدع بالحق عند السلطان وإظهار السنن وإخماد البدع والقيام لله في أمور الدين ومصالح المسلمين وتحمل الأذى المترتب على ذلك ولا يرضون من فعالهم الظاهرة والباطنة بالجائز بل يأخذون بأحسنها وأكملها فإنهم القدوة والمرجع في الأحكام وحجة الله على العوام.

وقال القرطبي في "تفسيره" (١/ ٣٢٦): ذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال: لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس فلما انصرفت عدت إليه لتمام حديث مسدد فقرأت عليه في يوما حديث النبي صلى الله عليه وسلم : < أنه قدم عليه قوم من مضر من مجتابي النمار > فقال: إنما هو مجتابي الثمار، فقلت: إنما هو مجتابي النمار هكذا قرأته عل كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال

لي: بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ! أو نحو هذا، ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ ـ الشيخ كان في المسجد ـ فإن له بمثل هذا علما فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال: إنما هو مجتابي النمار كم قلت، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم والنمار جمع نمرة، فقال بكر بن حماد: وأخذ بأنفه: رغم أنفي للحق، رغم أنفي للحق، وانصرف.

وقال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/ ٣٤٦): أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد والدخول تحت رقه بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه بهذا يحصل للعبد خلق التواضع. اهـ

وقال ابن حزم في "مداواة النفوس" ص(٣١): أفضل نعم الله على العبد أن يطبعه على العدل وحبه وعلى الحق وإيثاره. اهـ

وقال ابن القيم في "الجواب الكافي" ص(١٣٩): الكمال الإنساني مداره على أصلين معرفة الحق من الباطل وإيثاره عليه وما تفاوت منازل الحق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين. اهـ

وقال ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٢٧/ ٣١٥): والحق يعرفه كل أحد فإن الحق الذي بعث الله به الرسل لا يشتبه بغيره على العارف. اهـ

وقال ابن تيمية في "اقتضاء الصراط المستقيم" (٢/ ٨٥): ويلحق الذم من تبين له الحق فتركه أو من قصر في طلبه حتى لم يتبين له أو عرض عن طلب معرفته لهوىً أو لكسل..اهـ

وقال في "مجموع الفتاوى" (٣/ ٣١٤): لكن ينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء الرسول وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا. اهـ

وقال الشوكاني في "أدب الطالب" ص(٤٠): الميل إلى الباطلة ليس من شأن أهل التحقيق الذين لهم كمال إدراك وقوة فهم وفضل دراية وصحة رواية بل ذلك دأب من ليست له بصيرة نافذة ولا معرفة نافعة.

وقال في ص(١٩٨): إنه لا ينبغي لعالم أن يدين بغير ما دان السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقاضيه أدلة الكتاب والسنة.

وقال المعلمي في "الأنوار الكاشفة" ص(٣٤): والعالم الراسخ هو الذي إذا حصل له العلم الشافي بقضية لزمها ولم يبال بما قد يشكل فيها بل إما أن يعرض عن تلك المشككات وإما أن يتأملها في ضوء ما ثبت. اهـ

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في "الفروسية"(١ / ١٥٤): الواجب اتباع الدليل أين كان ومع من كان وهو الذي أوجب الله اتباعه وحرم مخالفته وجعله الميزان الراجح بين العلماء فمن كان من جانبه كان أسعد بالصواب.

سبب ترك الحق من العالم

قال ابن تيمية في "الفتاوى" (٩/ ٣١٤): إنما يحول بينهم وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا ومطالب الحسد وشهوات النفس فهو في هذه الحال كالعين الناظرة إلى وجه الأرض لا يملكها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء.

وقال الشوكاني في "أدب الطالب" (٤١): وقد يترك التكلم بالحق محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه وقد يترك التكلم بالحق الذي هو خلاف ما عليه الناس استجلاب لخواطر العوام ومخافة من نفورهم عنه وقد يترك التكلم بالحق لطمع يظنه ويرجو حصوله من تلك الدولة أو من سائر الناس في مستقبل الزمان. اهـ

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٤٢١): فصل: [**من اشتغل بخدمة الخلق أعرض عن الحق**] رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم فهم الفقيه التدريس و هم الواعظ الوعظ، فهذا يرعى درسه فيفرح بكثرة من يسمعه و يقدح في كلام من يخالفه و يمضي زمانه في التفكر في المناقضات ليقهر من يجادله و عينه إلى التصدر و الارتفاع في المجالس و ربما كانت همته جمع الحطام و مخالطة السلاطين، و الواعظ همته ما يزوق به كلامه و يكثر جمعه و يجلب به قلوب الناس إلى تعظيمه فإن كان له نظير في شغله أخذ يطعن فيه، و هذه قلوب غافلة عن الله عز وجل إذ لو كانت لها به معرفة لإشتغلت به و كان أنسها بمناجاته و إيثارها لطاعته و إقبالها على الخلوة به،

لكنها لما خلت من هذا تشاغلت بالدنيا و ذاك دنيا مثلها، فإذا خلت بخدمة الله تعالى لم تجد لها طعما و كان جمع الناس أحب إليها و زيارة الخلق لها آثر عندما و هذه علامة الخذلان، و على ضد هذا متى كان العالم مقبلا على الله سبحانه مشغولا بطاعته كان أصعب الأشياء عنده لقاء الخلق و محادثتهم و أحب الأشياء إليه الخلوة، و كان عنده شغل من القدح في النظراء أو عن طلب الرياسة، فإن ما علق به همته من الآخرة أعلى من ذلك، و النفس لا بد لها مما تشاغل به فمن اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن الحق فإنما يربي رياسته، و ذلك يوجب الإعراض عن الحق و ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

سب علماء الحق ضلال مبين

قال ابن عساكر في "تبيين كذب المفتري" (١/ ٣٧٨): وقد نهى ذو الجلال والإكرام عن سب ما يعبد من دونه من الأصنام فقال {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم} فمن تفرغ لسب عباد الله فقد عصى الله سهوا بغير فهم وإذا كان الله قد نهى عن سب الأخشاب والأحجار فكيف يبيح لكم سب العلماء الأخيار. اهـ

وقال: فمن أضل سبيلا ممن اتبع هواه واستفرغ في ذم العلماء بالباطل قواه، ولم يرقب فيهم إلاً ولا ذمة، ولم يرع له محلا ولا حرمة، ومن أعظم جهلا ممن فرغ نفسه للطعن، والوقيعة في الأكابر والأعيان من علماء الشريعة، ولو أنعم فيما قاله تفكرا لعلم أنه أتى أمرا مستنكرا ولو كان بأحكام الشريعة خبيرا لتيقن أنه ارتكب حوبا كبيرا. اهـ

وقال ابن عساكر في "تبيين كذب المفتري" (١/ ٤٢٥): وكل من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله عز وجل قبل موته بموت القلب، وقد اخبرنا الشيخ أبوالقاسم إسماعيل بن أحمد بن السمرقندي، قال أخبرنا أبو محمد أحمد بن علي بن الحسن بن أبي عثمان، قال أنا القاضي أبوالقسم الحسن بن الحسن بن علي بن المنذر، قال أنا أبو علي الحسين بن صفوان البرذعي قال ثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا قال حدثني إبراهيم بن سعيد قال ثنا موسى بن أيوب قال ثنا مخلد يعني ابن الحسين قال ثنا بعض أصحابنا قال ذكرت يوما عند الحسن بن ذكوان رجلا بشيء فقال مه لا تذكر العلماء بشيء فيميت الله قلبك. اهـ

قال أبوعبدالله: نعم هذا إذا لم يكن من باب بيان حال المتكلم فيه تحيراً للأمة من الخطأ الذي وقع فيه فهذا واجب شرعي يتحتم على من كان قادراً عليه وعنده الملكة في هذا العلم والإنصاف وإرادة الحق، وهذا جائز باتفاق العلماء.

قال ابن الجوزي في "تلبيس إبليس" (١/ ١٩٥): عن إسماعيل بن شبة قال دخلت على أحمد بن حنبل وقد قدم أحمد بن حرب من مكة فقال لي أحمد بن حنبل من هذا الخراساني الذي قد قدم قلت من زهده كذا وكذا ومن ورعه كذا وكذا، فقال: لا ينبغي لمن يدعي ما يدعيه أن يدخل نفسه في الفتيا احتقار العلماء وذمهم.

وقال الذهبي في "السير" (١٣/ ٣٤٥): فما من إمام كامل في الخير إلا وثم أناس من جهلة المسلمين ومبتدعيهم يذمونه ويحطون عليه..وإنما العبرة بقول جمهور الأمة الخالين من الهوى والجهل المتصفين بالورع والعلم.

وقال الذهبي في ":السير" (٨/ ٣٣٨): لكن إذا ثبتت إمامة الرجل وفضله لم يضره ما قيل فيه، وإنما الكلام في العلماء مفتقر إلى وزن بالعدل والورع.

وقال العلامة الألباني في "فقه الواقع" (١/ ٢٧): أما الطعن في بعض العلماء أو طلاب العلم ونبزهم بجهل فقه الواقع، ورميهم بما يستحيى من إيراده، فهذا خطأ وغلط ظاهر لا يجوز استمراره؛ لأنه من التباغض الذي جاءت الأحاديث الكثيرة لتنهى المسلمين عنه، بل لتأمرهم بضده من التحاب والتلافي والتعاون. اهـ

وجوب طلب العلم على العلماء

قال أبوعبدالله: تقدم جملة من الأدلة في فضل طلب العلم ويتعين ذلك على العالم، وقد تكاثرت نصائح الأئمة للعلماء وحثهم لهم بطلب التزود في العلم لأهمية ذلك لهم عن غيرهم.

قال عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا، ذكره البخاري تعليقا بصيغة الجزم ووصله ابن أبي شيبة، والخلال، وغيرهما وسنده صحيح.

قال الخطابي: يريد من لم يخدم العلم في صغره يستحي أن يخدمه بعد كبر السن وإدراك السؤدد.

وقال الإمام أبونعيم في "حلية الأولياء" (٧ / ٢٨١): حدثنا سليمان بن أحمد ثنا عبدالله بن احمد بن حنبل ثنا احمد بن محمد ابن أيوب صاحب المغازي قال اجتمع الناس إلى سفيان بن عيينة فقال من أحوج الناس إلى هذا العلم

فسكتوا ثم قالوا تكلم يا أبا محمد قال أحوج الناس إلى العلم العلماء وذلك أن الجهل بهم أقبح لأنهم غاية الناس وهم يسألون.

وقال الإمام الدارمي: نقول إن على العالم باختلاف العلماء أن يجتهد ويفحص عن أصل المسألة حتى يعقلها بجهده ما أطاق فإذا أعياه أن يعقلها من الكتاب والسنة فرأي من قبله من علماء السلف خير له من رأي نفسه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا يقلدن رجل منكم دينه رجلا إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإن كنتم لا بد فاعلين فالأموات فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة.

وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت له. رواه البخاري (٥٠٠٠) ومسلم (٢٤٦٢)

وقال ابن مسعود أيضاً: من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله فإن لم يجد في كتاب الله ففي سنة رسول الله فإن لم يجد في سنة رسول الله ففيما قضى به الصالحون قبله. اهـ

قال أبوعبدالله: ولا يجوز للعالم أن يحسن الظن بنفسه ويكتفي زعماً بما عنده، فإن العلم ينمو، والعالم أكثر ما يحتاج إلى التزود لأنه بين الفتوى وتحسين الظن به من الناس.

قال سفيان: من ترأس في حديثه كان أدنى عقوبته أن يفوته حظ كثير من العلم.

وقال أبو حنيفة: من طلب الرياسة بالعلم قبل أوانه لم يزل في ذلك ما بقي.

وقال الشافعي: إذا ترأست فلا سبيل إلى التفقه.

وقال الذهبي في ترجمة أبي بكر الصديق في طبقات الحفاظ: حق على المحدث أن يتورع فيما يؤديه وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقله الأخبار ويجرحهم جهبذا إلا بإدمان الطلب والفحص عن الشأن وكثرة المذاكرة والسهر والتيقظ والفهم مع التقوى والدين المتين والإنصاف والتردد إلى العلماء والتحري والإتقان وإلا تفعل:

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

قال الله عز وجل {فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} فإن آنست يا هذا من نفسك فهما وصدقا ودينا وورعا وإلا فلا تتعن وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي أو لمذهب فبالله لا تتعب.

وقال القرطبي: في قوله تعالى { لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا} في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم وذلك كان في دأب السلف الصالح وبسبب ذلك وصل المرتحلون

إلى الحظ الراجح وحصلوا على السعي والناجح فرسخت لهم في العلوم أقدام وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

وقال في قوله تعالى {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصموا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى : {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} فصار الكتاب أصلا والسنة به بيانا واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا.

وقال عند قوله تعالى: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا} هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ما حرم الله عليهم مما حل قال الله تعالى : {لتبيننه للناس ولا تكتمونه} [آل عمران: ١٨٧]

وقال ابن كثير: **فالواجب على العلماء** الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون} وقال تعالى {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم} فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه وتفهمه وتفهيمه .

وقال أبو مسعود في "تفسيره": في قوله تعالى {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات} أطلق على كل غامض وإن لم يكن غموضه من تلك الجهة وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبرها وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج مقاصدها الرائفة ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية.

ولا ينبغي للعالم أن يتكبر عن أخذ العلم من أقرانه من العلماء ولا ممن هو دونه ومن باب أولى الأرفع منه علماً، وقد قال أحد السلف: لا ينبل الشخص حتى يأخذ ممن هو أرفع منه وممن هو دونه وممن هو أدنى منه.

وقال البيهقي في "مختصر شعب الإيمان" (١/ ١١٨): ومعلوم في العادات أن ذا الرأي يزداد بمجالسة أولى الأحلام والنهي رأيا وأن العالم يزداد بمخالطة العلماء علما وكذلك الصالح والعاقل بمجالسة الصلحاء والعقلاء.. وبالله التوفيق.

قال أبوعبدالله: ولابد من الاستمرار والجد في الطلب والتحصيل ولا يعتمد العالم على السماع من الغير بل لآبد من البحث والتفتيش عن مكنون العلوم.

قال المناوي في "فيض القدير" (١/ ٢): قال الغزالي: ينبغي أن يكون اعتماد العلماء في العلوم على بصيرتهم وإدراكهم وبصفاء قلوبهم لا على الصحف والكتب ولا على ما سمعوه من غيرهم فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم لا عالما. اهـ

همة عالية عند العلماء المتقدمين

مما هو معلوم عندنا أن السلف رضي الله عنهم لا يقاربون في همتهم في خدمة الدين وفي بذل كل غالي ورخيص من أجله فإذا رأينا في تراجمهم فيما عملوه من خدمة العلم لعلمنا عجزنا وتقصيرنا في ذلك، فكان أحدهم يسهر الليل كله، بل قد يرحل أحدهم الأشهر من مصر إلى آخر، ومن أجل حديث واحد يسمعه بعلو.

قال ابن الجوزي في "صيده" (١/ ٤٤٨): فصل: قدماء العلماء و همتهم العالية، كانت همم القدماء من العلماء عالية تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت لأن همم الطلاب ضعفت فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطولات ثم إقتصروا على ما يدرسون به من بعضها فدثرت الكتب ولم تنسخ فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الإطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره و يحرك عزيمته للجد و ما يخلو كتاب من فائدة، و أعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدي و لا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف و مطالعة تصانيفهم و أخبارهم فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم كما قال:

فإتني أن أرى الديار بطرفي فلعلي أرى الديار بسمعي

وإني أخبر عن حالي ما أشبع من مطالعة الكتب و إذا رأيت كتابا لم أره فكأني وقعت على كنز، و لقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد و في ثبت كتب أبي حنيفة و كتب الحميدي و كتب شيخنا عبد الوهاب وابن ناصر وكتب أبي محمد بن الخشاب وكانت أحمالا وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، و لو قلت أني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر و أنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم و قدر هممهم و حفظهم وعباداتهم و غرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه و أحتقر همم الطلاب و لله الحمد. اهـ

العلماء والاهتمام منهم بالقرآن

قال الضحاك: لا ينبغى لأحد أن يدع حفظ القرآن جهده فإن الله تعالى يقول: {و لكن كونوا ربانين}.

وقال الدهلوي في "رسالة التوحيد" (١/ ٢٣): إن القرآن يرتقي بالجهال إلى درجة العلماء، والضلال إلى مستوى الصالحين والأصفياء، فرب جاهل لا يفقه شيئا بلغ بفهمه مبلغ العلماء الراسخين ورب ضال تائه استنار بنوره واهتدى بهديه وبلغ ذروة الصلاح والإخلاص.

وقال أبو الفضل المقرئ "أحاديث في ذم الكلام وأهله" (٣/ ٢١٣): أخبرنا سعيد بن العباس أخبرنا أبي حدثنا المنذري حدثنا أبو العباس عبد الله بن

الصقر حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن عثمان التيمي حدثني نافع بن راشد قال: ما خطب عمر بن عبد العزيز على هذا المنبر يعني منبر رسول الله قط إلا قال: أيها الناس عليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه، فبه فقه الفقهاء، وبه علم العلماء، وبه يبلغ العلم وإليه ينتهي العلم. اهـ

قال ابن عبدالبر: فأول العلم حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه ولا أقول إن حفظه كله فرض ولكن أقول إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون علماً ليس من باب الفرض. اهـ

وقال الخطيب في "جامع أخلاق الراوي" (١/ ١٠٦): ينبغي للطالب أن يبد بحفظ كتاب الله عزوجل إذ كان أجل المعلوم وأولاها بالسبق والتقدم. اهـ

قال أحمد: والذي يجب على الإنسان من تعلم القرآن والعلم ما بد له منه في صلاته وإمامة دينه وأقل ما يجب على الجل من تعلم القرآن فاتحة الكتاب وسورتان. "الأدب لابن مفلح" (٢/ ٣٤).

قال الميموني لأبي عبدالله بن حنبل: أحب إليك أبداً ابني بالقرآن أو الحديث؟ قال: القرآن. "الآداب الشرعية لابن مفلح" (٢/ ٣٣)

وقال ابن حزم في "الإجماع": اتفقوا على أن حفظ شيء من القرآن واجب ولم يتفقوا على ما هية ذلك الشيء ولا كميته بما يمكن ضبط إجماع فيه إلا أنهم اتفقوا على أنه من حفظ أم القرآن وسورة أخرى معها فقد أدى فرض الحفظ وأنه لا يلزمه أكثر من ذلك.

واتفقوا على استحباب حفظ جميعه وإن ضبط جميعه واجب على الكفاية لا متعين.

قال النووي في كتاب "العلم من شرح المهذب" (١/ ٣٨): ما يبتدى به حفظ القرآن العزيز فهو أهم العلوم وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن. اهـ

وقال ابن تيمية في "الفتاوى الكبرى" (٢/ ٢٣٥): وأما طلب حفظ القرآن فهو مقدم على كثير ما تسميه الناس علماً. اهـ

وقال ابن أبي المعتز في "الإتباع" ص(٣٣): فالواجب على من طلب العلم النافع أن يحفظ كتاب الله ويتدبره. اهـ

العلم من المهد إلى اللحد

ما أجمل أن يصحب الإنسان في حياته العلم النافع فيكون له ملازماً لا يتركه حتى يوارى في التراب فنعم الصاحب والصديق والناصح.

قال ابن حجر في "لسان الميزان" في ترجمة ابن جرير الطبري: قال مسلمة بن قاسم كان حصورا لا يعرف النساء ورحل من بلده في طلب العلم وهو بن اثنتي عشرة سنة، سنة ست وثلاثين فلم يزل طالبا للعلم مولعا به إلى أن مات. اهـ

وروى الخطيب في "شرف أصحاب الحديث" (٦٨): عن ابن المبارك أنه سئل إلى كم تكتب الحديث، فقال: لعل الكلمة التي انتفع بها لم أسمعها بعد. اهـ

وروى عن أحمد أنه سئل إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال حتى يموت، وقال: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وتراجم الأئمة مليئة بمثل هذا إلا أن الأمر كما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: من المهد إلى اللحد.

تحتم العمل بالعلم من العلماء

وليس الأمر محصور للعلماء بل لكل إنسان فإنه يتحتم عليه العمل، وقد ألف العلماء كتباً في باب العمل بالعلم.

قال ابن كثير: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون} وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم-أي أهل الكتاب- فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسالكهم فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئا.

وقال في قوله تعالى: { أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون } والغرض : أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه

وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام: { وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب } فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الأخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فإنه لا حجة لهم فيها والصحيح : أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر وإن ارتكبه قال مالك عن ربيعة : سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر قال مالك : وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء ؟ قلت: لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك ...عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: < مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار قال: قلت من هؤلاء ؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون >، وعن أسامة: ألا تكلم عثمان ؟ فقال: إنكم ترون أني لا أكلمه ألا أسمعكم إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس، وإن كان علي أميرا بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قالوا: وما سمعته يقول ؟ قال:

سمعته يقول: < يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه > رواه البخاري ومسلم.

وقال العيني في "عمدة القاري" عند حديث أبي بكرة < ليبلغ الشاهد الغائب > (٢/ ٣٨): فيه أن العالم يجب عليه تبليغ العلم لمن لم يبلغه وتبيينه لمن لا يفهمه وهو الميثاق الذي أخذه الله تعالى على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه... فيه أن ما كان حراما يجب على العالم أن يؤكد حرمته ويغلظ عليه بأبلغ ما يوجد كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام في المتشابهات. اهـ

وقال القرطبي في قوله تعالى {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون } أخبر الله تعالى أن الذي يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون ... المراد كل من كتم الحق فهي عامة في كل من كتم علما من دين الله يحتاج إلى بثه وذلك مفسر في قوله صلى الله عليه وسلم: < من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار > رواه أبو هريرة، وعمرو بن العاص.

الثانية: هذه الآية هي التي أراد أبو هريرة رضي الله عنه في قوله: لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثتكم حديثا، وبها استدل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق وتبيان العلم على الجملة دون أخذ الأجرة عليه إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعله كما لا يستحق الأجرة على الإسلام وقد مضى القول في هذا.

وتحقيق الآية هو: أن العالم إذا قصد كتمان العلم عصى وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث.

وقال العلامة الألباني في "فقه الواقع" (١/ ١٦): على الخطباء والعلماء والدعاة أن يربوا المسلمين على قبول حكم الإسلام والاستسلام له ثم دعوة الحكام بالتي هي أحسن للتي هي أقوم إلى أن يستعينوا بالفقهاء والعلماء فهم للمسلمين جماعات وأفرادا ضياء السبيل ومنار الطريق وعلى نهجهم يسيرون على اختلاف علمهم وتنوع فقههم.

ومن العمل بالعلم الصدع بالحق

قال المقبلي في "العلم الشامخ" ص(٣٠١): وما ضل وأضل إلا تهاون العلماء بالصدع بالحق.

وقال ابن الوزير في "العواصم" (١/ ٢٢٣): ولو أن العلماء رضي الله عنهم تركوا الذب عن الحق خوفاً من كلام الخلق لكانوا قد أضاعوا كثيرًا وخافوا حقيرًا.

وقال ابن عساكر في "تبيين كذب المفتري" (١/ ٣٣٩): فأما الكلام الموافق للكتاب والسنة الموضح لحقائق الأصول عند ظهور الفتنة فهو محمود عند العلماء ومن يعلمه وقد كان الشافعي يحسنه ويفهمه وقد تكلم مع غير واحد ممن ابتدع وأقام الحجة عليه حتى انقطع.

وقال النسفي في "تفسيره" (١/ ١٩٧): يجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه و أن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم أو لجر منفعة أو دفع أذية أو لبخل بالعلم وفى الحديث من كتم علما عن أهله ألجمه الله بلجام من نار.

وقال ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (١/ ٨١): ومن أنواع النصح لله تعالى وكتابه ورسوله وهو مما يختص به العلماء رد الأهواء المضلة بالكتاب والسنة على موردها وبيان دلالتهما على ما يخالف الأهواء كلها، وكذلك رد الأقوال الضعيفة من زلات العلماء وبيان دلالة الكتاب والسنة على ردها ومن ذلك بيان ما صح من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح منه بتبيين حال رواته ومن تقبل رواياته منهم ومن لا تقبل وبيان غلط من غلط من ثقاتهم الذين تقبل روايتهم، ومن أعظم أنواع النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره.

وقال ابن حجر في "فتح الباري" (٩/ ١٥٢): أن العالم إذا سئل يصدق من قال الصواب فيها.

وقال العز بن عبدالسلام: أوجب الله على العلماء إعزاز الدين وإذلال المبتدعين، فسلاح العالم علمه كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين.

فمن ناضل عن الله وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله تعالى بعينه التي لا تنام وبعزة الذي لا يضام خصوصاً وقد قال القشيري: سمعت أبا علي

الدقاق يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس، فالساكتون عصاة آثمون مندرجون تحت قوله تعالى {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}. "شفاء الصدور" (٢٢٣)

وقال الإمام أبو عمرو الداني في "الرسالة الوافية" ص(٢٨٨): ومن الواجب على العلماء إنكار البدع والضلالات وإظهار الحجج وبيان الدلائل من الكتاب والسنة وحجة العقل حتى يقطع عذرهم وتبطل شبههم وتمويهاتهم.

العلماء هم القدوة

قال أحمد: العالم يقتدى به ليس العالم مثل الجاهل.

وقال الأوزاعي: كنا نمزح ونضحك فلما صرنا يقتدى بنا خشيت أن لا يسعنا التبسم.

وقال الفضيل: بلغني أن العلماء فيما مضى كانوا إذا تعلموا عملوا وإذا عملوا شغلوا وإذا شغلوا فقدوا وإذا فقدوا طلبوا وإذا طلبوا هربوا.

فقد قال بعض السلف : كنا نمزح و نضحك فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك

وروى الخلال في أخلاق الإمام أحمد عن إبراهيم قال: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته وإلى سمته وإلى هيئته ثم يأخذون عنه.

وقال أبوبكر الحصني في "دفع شبه من شبه وتمرد" (١/ ٣٠): إذا عبث العلماء بالمكروه عبث العوام بالحرام، وإذا عبث العلماء بالحرام كفر العوام، معناه أنهم يعتقدون حله لإرتكاب العلماء ذلك؛ لأنهم القادة وعليهم المعول في التحليل والتحريم.

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٥٣): نظرت فإذا العلماء و المتعلمون و العباد و المتزهدون فتأملت العباد و المتزهدين فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم و يأنس إلى تعظيمه و تقبيل يده و كثرة أتباعه حتى إن **أحدهم لو اضطر إلى أن يشتري حاجة من السوق لم يفعل لئلا ينكسر جاهه** ثم تترقى بهم رتبة الناموس إلى ألا يعودوا مريضا و لا يشهدوا جنازة إلا **أن يكون عظيم القدر عندهم** و لا يتزاورون بل ربما ضن بعضهم على بعض بلقاء فقد صارت النواميس كلأوثان يعبدونها و لا يعلمون **وفيهم من يقدم على الفتوى و هو جاهل** لئلا يخل بناموس التصدر ثم يعيبون العلماء لحرصهم على الدنيا و لا يعلمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه إلا تناول المباحات **ثم تأملت العلماء المتعلمين فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النجابة لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به** و جمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب إما ليأخذ به قضاء مكان أو ليصير به قاضي بلد أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه لم يكتفي، **ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى و يستخدمه فهو يؤثر ما يصده العلم عنه.**

وقال اللكنوي في "شرح الموطأ" من رواية محمد بن الحسن (٢/ ٢٧١): قوله: < ولو أن رجلا جاهلا رأى هذا الثوب > لقال: إن طلحة كان يلبس الثياب المصبغة في الإحرام.

يؤخذ منه أن العلماء يستحب لهم التجنب عن مواضع التهم وأنه ينبغي لهم ترك مباح يحتمل فيه الفتنة ولم يفرق الرأي بين الحلال والحرام على أن نفس هذا اللون مع قطع النظر عن كونه طيبا لا يليق بالعلماء.

وقال ابن حجر في "فتح الباري" (٤/ ٢٨٠) عند حديث < إنها صفية>: وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار.

وقال بن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدي به فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب سوء الظن بهم وأن كان لهم فيه مخلص لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم ومن ثم قال بعض العلماء ينبغي للحاكم أن يبين للمحكوم عليه وجه الحكم إذا كان خافيا نفيا للتهمة ومن هنا يظهر خطا من يتظاهر بمظاهر السوء ويعتذر بأنه يجرب بذلك على نفسه وقد عظم البلاء بهذا الصنف والله أعلم.

وقال العلامة الألباني في "فقه الواقع" (١/ ٢٦): ومن الواجب على العلماء أيضا وعلى مختلف اختصاصاتهم فضلا عن بقية الأمة أن يكونوا ممتثلين قول نبيهم صلى الله عليه وسلم: < مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد > ولا يتحقق هذا المثل النبوي العظيم بمعناه الرائع الجميل إلا بتعاون العلماء مع أفراد المجتمع تعليما وتعلما دعوة وتطبيقا، فيتعاون إذا من عرفوا فقه الشرع بأدلته وأحكامه مع من عرفوا فقه الواقع بصورته الصحيحة التطبيقية لا النظرية فأولئك يمدون هؤلاء بما عندهم من علم وفقه وهؤلاء يوقفون أولئك على ما تبين لهم ليحذروا ويحذروا ومن هذا

التعاون الصادق بين العلماء والدعاة على تنوع اختصاصاتهم يمكن تحقيق ما ينشده كل مسلم غيور.

علمائنا علماء أهل السنة أينما كانوا

وإنه مما يؤسف في مثل زماننا هذا وجود بعض الرويبضة الذين يحاولون إيجاد الفروق بين علماء أهل السنة بين الأمصار فتارة بأن المرجعية لأهل قطر كذا، وتارة المرجعية لأصحاب اللحى البيضاء، وتارة الأمر للأكابر، وهكذا مما شغلوا الناس به، وإنه من المعلوم عندنا أهل السنة أنه لا فرق بين علمائنا أينما كانوا ما دام أنهم على السنة ثابتون وبالحق قائلون، وإنه من يقرأ كتب الأئمة سيجد أنهم يجعلون الأمر إلى علماء المسلمين أينما كانوا.

قال ابن قدامة في "إثبات صفة العلو" (١/ ١٢٥): قال أبومحمد عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سألت أبي وأبا زرعه عن مذهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، **حجازاً، وعراقاً، ومصرا، وشاما، ويمنا**، فكان من مذاهبهم: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله.

وقال في "إثبات صفة العلو" (١/ ١٣١): وقالا الإمامان أبوزرعة وأبو حاتم: هذا ما أدركنا عليه العلماء في جميع الأمصار حجازا، وعراقا، ومصرا، ولم يخالف في ذلك غير مبتدع غال أو مفتون ضال.

وقال الإمام اللالكائي في "اعتقاد أهل السنة" (٢/ ٢٤١) قلت: ولقد لقي ابن عيينة نحوا من مائتي نفس من التابعين من العلماء وأكثر من ثلاثمائة من أتباع التابعين من أهل الحرمين والكوفة والبصرة والشام ومصر واليمن.

وقال ابن خزيمة في "التوحيد" (١/ ٢٦): فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه نقر بذلك بألسنتنا ونصدق ذلك بقلوبنا.

وقال البغدادي في "تاريخه" (٢/ ٢٨): قال عبدالله بن عبد الرحمن السمرقندي يقول: قد رأيت العلماء بالحرمين، والحجاز، والشام، والعراقين، فما رأيت فيهم اجمع من أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.

وقال النووي "صحيح مسلم" (٣/ ١٢٨٨) في حديث القسامة: أصل من أصول الشرع وقاعدة من قواعد الأحكام وركن من أركان مصالح العباد وبه أخذ العلماء كافة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار الحجازيين والشاميين والكوفيين وغيرهم رحمهم الله تعالى.

وقال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا وأدركت من أدركت من العلماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق. "شرح قصيدة ابن القيم" (١/ ٩٧).

وقال ابن عبدالبر في "التمهيد" (١٧/ ٤٢٦): وبه قال مالك في علماء المدينة والشافعي في سائر علماء المكيين والحجازيين والثوري وأبو حنيفة وابن علية في جماعة فقهاء العراقيين والأوزاعي والليث في فقهاء أهل الشام والمغرب وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور وأبو عبيد وداود بن علي والطبري وجماعة أهل الحديث.

وقال الخطابي: مذهب جمهور العلماء والذي جرى به العمل في الحرمين والحجاز والشام واليمن ومصر والمغرب إلى أقصى بلاد الإسلام أن الإقامة فرادى. "شرح النووي على مسلم" (٤/ ٧٨)

فأنت رأيت أن الأئمة لا يفرقون بمثل هذه الكلمات التي تدل على المكر والسعي في وجود الشقاق بين علماء المسلمين، وعلى هذا فإن من سمات أهل السنة الدلالة على العالم السني أينما كان.

الدلالة على العلماء

وأصل هذا الباب هو ما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه في قصة التائب في قوله <دلوني على أعلم أهل الأرض> متفق عليه.

وحديث جبير بن مطعم <إن لم تجديني فأتِ أبا بكر> رواه البخاري (٣٦٥٩) ومسلم (٢٣٨٦).

قال ابن القيم في "إعلام الموقعين" (٤/ ٢٠٧): في دلالة المستفتي على غيره وهو موضع خطر جداً فلينظر الرجل ما يحدث من ذلك فغنه متسبب بدلالته إما على الكذب على الله ورسوله في أحكامه أو القول عليه بلا علم

فهو معين على الإثم والعدوان وإما معين على البر والتقوى فلينظر الإنسان إلى من يدل عليه وليتق الله ربه. اهـ

وقال الشاطبي رحمه الله في "الاعتصام" (٢/ ٢٩٠): والشهادة بأن فلاناً راسخ في العلم وفلاناً غير راسخ في غاية الصعوبة.

أكابر العلماء هم أهل العلم

قال ابن مسعود: لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأكابرهم فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا. اهـ

قال أبوعبدالله: رواه ابن المبارك في الزهد وهو من طريق أبي إسحاق السبيعي وهو مدلس وقد عنعن.

ذكر ابن خثيمة في "كتاب العلم" (١٥٥): إنكم لن تنالوا بخير مادام العلم في ذوي أسنانكم فإذا كان العلم في الشباب أنف ذو السن أن يتعلم من الشباب. اهـ

قال ابن قتيبة: يريد لا يزال الناس بخير ما كان علماءهم المشايخ ولم يكن علماءهم الأحداث لأن الشيخ قد زالت عنه متعتة الشباب وحدته وعجلته وسفهه واستصحب التجربة والخبرة فلا يدخل في علمه الشبهة ولا يغلب عليه الهوى ولا يميل به الطمع ولا يستزله الشيطان استزلال الحدث ومع

السن والوقار والجلالة والهيبة والحدث قد تدخل عليه هيبة الأمور التي أمنت على الشيخ فإذا دخلت عليه وأفتر هلك وهلك. اهـ

قال أبوعبدالله: ومما يسعى فيه رويبضة عصرنا وأهل عشيرتنا أن الدعوة السلفية لأبد أن تكون في الأكابر من أهل العلم، وجهل هؤلاء أموراً منها:

* أننا ما درينا ما ضابط الأكابر عندهم.

* أن هذه حجة في رد الحق من أهل العلم فكل من لم يقبلوا قوله قالوا الكلام للأكابر.

* رأينا ممن يدعونهم بالأكابر أقل علم ممن هم يجعلونه من الأصاغر.

* أن مسألة الأكابر ليس على ما أراد هؤلاء فإن العلماء يقصدون برواية الأصاغر عن الأكابر أي رواية المتقدم طبقة على من تأخر عنه.

* وأيضاً فإنهم يقولون أن الأمر عند الأكابر أصحاب اللحى البيضاء وأكابر السن.

* ومن المعلوم أن كثيرا من أهل العلم من قد طعن في السن ولم تكن له عناية بالعلم كثيراً، وقد يكون اشتعل رأسه شيباً وهو أقل علماً ممن صغر سنة وهو على علم كبير، ولو رأينا في تراجم العلماء الكبار لوجدنا الأمر على غير ما أراد هؤلاء فكثير منهم من مات وهو في سن صغير ولم تنبت له شعرة ببيضاء، ومع ذلك فكل العلماء من الأكابر المتأخرين أكبر اعتمادهم على مثل ذلك العالم الصغير الشاب، ولقد نسي هؤلاء أن الإمام أحمد حين لقب بإمام

أهل السنة كان في سن الثلاثين من عمره، والأمثلة كثيرة لما قلتُ لمن تأمل تراجم العلماء.

قال العيني في "عمدة القاري" (٢٥/ ٨٠): كان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباباً.. وكان اصطلاح الصدر الأول أنهم كانوا يطلقون القراء على العلماء، وقوله كهولا كانوا أو شبابا يعني كان يعتبر العلم لا السن.

وقال ابن عبدالبر في "التمهيد" (٢٣/ ١٥٠): عند قصة ابن عباس مع أبي سلمة بن عبد الرحمن حين اختلفا في المرأة تنفس بعد وفاة زوجها بليال، فقال أبو سلمة إذا وضعت ما في بطنها فقد حلت وقال ابن عباس آخر الأجلين فجاء أبو هريرة فقال أنا مع ابن أخي يعني أبا سلمة فبعثوا كريبا مولى عبد الله بن عباس إلى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم يسألها عن ذلك فجاءهم فأخبرهم أنها قالت ولدت سبيعة الأسلمية بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: <قد حللت فانكحي من شئت>، قال: في هذا الحديث دليل على جلالة أبي سلمة وأنه كان يفتي مع الصحابة وأبو سلمة القائل لو رفقت بابن عباس لأخرجت منه علما.

وفيه دليل على أن العلماء لم يزالوا يتناظرون ولم يزل منهم الكبير لا يرتفع على الصغير ولا يمنعون الصغير إذا علم أن ينطق بما علم ورب صغير في السن كبير في علمه والله يمن على من يشاء بحكمته ورحمته.

قال علي بن المديني: إن العالم ليس بالسن

وقال وكيع: لا يكون الرجل عالماً حتى يسمع ممن هو أسن منه ومن هو مثله وممن هو دونه في السن.

قال عبد الله بن المعتز: الجاهل صغير وإن كان شيخًا والعالم كبير وإن كان حدثاً. "الجامع لأخلاق الراوي" (١/ ٣٢٦).

وقال ابن الجوزي في "كشف المشكل": أخذ العلم من أهله وإن حفرت أسنانهم أو قلت أقدارهم وقد كان حكيم بن حزام يقرأ على معاذ بن جبل فقيل له: تقرأ على هذا الغلام الخزرجي؟ فقال: إنما أهلكنا التكبر.

علماء وحفاظ ونبلاء كبار القدر حديثو الأسنان

منهم: الإمام الشافعي، والإمام عبد السلام الحراني، وحفيده شيخ الإسلام، والحافظ ابن حجر، وغيرهم.

بل مات بعضهم في سن مبكر ما جاوز أحدهم سن الأربعين وقد بلغ رتبه الإمامة في الدين ومنهم: معاذ بن جبل مات ولم يجاوز ٣٦ سنة، إبراهيم التيمي مات ولم يبلغ ٤٠عاماً، وكذا عمر بن عبد العزيز مات ولم يبلغ ٤٠ سنة، والحازمي صاحب الناسخ والمنسوخ مات ولم يبلغ ٣٦ سنة، والبرازلي مات ولم يبلغ سن ١٨ سنة، والإمام ابن عبدالهادي مات ولم يبلغ٤٠ سنة.

فهؤلاء أئمة هدى ومصابيح الدجى نفع الله بهم الإسلام والمسلمين بعلومهم ودعوتهم ونصحهم ومع ذلك قد عرفت أن سنهم كان صغيراً **فالعبرة بالنفع هو الشأن كله.**

معرفة الأكابر و الأصاغر

وزد على ما رأيت ما قال الإمام الحاكم في "معرفة علوم الحديث": **النوع السادس عشر: معرفة الأكابر و الأصاغر.**

هذا النوع منه معرفة الأكابر من الأصاغر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : < البركة مع أكابرهم >.

وشرح هذه المعرفة أن طالب هذا العلم إذا كتب حديثا لليث بن سعد عن عبد الله بن صالح لا يتوهم أن الراوي دون المروي عنه وكذلك إذا روى حديثا لـ يحيى بن سعيد الأنصاري عن مالك بن أنس و الأعمش عن شعبة أو ابن جريج عن إسماعيل بن علية أو الزهري عن بهز بن حكيم أو الليث بن سعد عن أبي يوسف القاضي وما أشبه هذا، فإني ذكرت ما حضرني في الوقت ومثاله في الروايات كثيرة فمن فهم الطالب أن لا يقيس مثل هذه الرواية على الأقران أو الاستواء في الإسناد والسن فإن هذا النوع غير معرفة الأقران الذي نذكره بمشية الله بعد هذا.

والمثال الثاني لهذا النوع من العلم: أن يروي العالم الحافظ المتقدم عن المحدث الذي لا يعلم غير الرواية عن كتابه فينبغي أن يعلم الطالب فضل التابع على المتبوع مثال هذا رواية الثوري و شعبة عن الأعمش وأشباهه من المحدثين ورواية مالك بن أنس و ابن أبي ذئب عن عبد الله بن دينار وأشباهه ورواية أحمد و إسحاق عن عبيد الله بن موسى و آشباهه وليس في هؤلاء مجروح بل كلهم من أهل الصدق إلا أن الرواة عنهم أئمة حفاظ فقهاء وهم محدثون فقط.

قال الحاكم: وقد رأيت أنا في زماننا من هذا النوع ما يطول ذكره كان شيخنا وإمامنا أبو بكر بن إسحاق يروي عن أبي الحسن أحمد بن محمد الطرائفي وربما توهم المبتدئ أنه أستاذه وكان فقيه عصرنا أبو الوليد يحدث عن أبي الطيب الذهلي وكان أبو علي الحافظ يحدث عن ابن بطة فلا ينبغي أن يخفى على طالب هذا العلم فقد صحت الرواية عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم.

وقال برهان الدين الأبناسي في "الشذا الفياح" (٢/ ٥٣٥):

النوع الحادي والأربعون: معرفة الأكابر الرواة عن الأصاغر، ومن الفائدة فيه ألا يتوهم كون المروي عنه أكبر أو أفضل من الراوي نظرا إلى أن الأغلب كون المروي عنه كذلك فيجهل بذلك منزلتهما وقد صح عن عائشة رضي الله عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم، ثم إن ذلك يقع على أضرب:

منها: أن يكون الراوي أكبر سنا وأقدم طبقة من المروي عنه كالزهري ويحيى ابن سعيد الأنصاري في روايتهما عن مالك، وكأبي القاسم عبيد الله بن أحمد الأزهري من المتأخرين أحد شيوخ الخطيب روى عن الخطيب في بعض تصانيفه والخطيب إذ ذاك في عنفوان شبابه وطلبه.

ومنها: أن يكون الراوي أكبر قدرا من المروي عنه بأن يكون حافظا عالما والمروي عنه شيخا راويا فحسب كمالك في روايته عن عبد الله بن دينار، وأحمد وإسحاق بن راهويه في روايتهما عن عبيد الله بن موسى في أشباه لذلك كثيرة.

ومنها: أن يكون الراوي أكبر من الوجهين جميعا وذلك كرواية كثير من العلماء والحفاظ عن أصحابهم وتلامذتهم كعبد الغني الحافظ في روايته عن محمد بن علي الصوري، وكرواية أبي بكر البرقاني عن أبي بكر الخطيب، وكذا رواية الخطيب عن أبي نصر ابن ماكولا ونظائر ذلك كثيرة.

ويندرج تحت هذا النوع ما يذكر من رواية الصحابي عن التابعي كرواية العبادلة وغيرهم من الصحابة عن كعب الأحبار.

وكذلك رواية التابعي عن تابع التابعي كما قدمناه من رواية الزهري والأنصاري عن مالك، وكرواية عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص لم يكن من التابعين، وروى عنه أكثر من عشرين نفسا من التابعين جمعهم عبد الغني بن سعيد في كتيب له.

وقرأت بخط الحافظ أبي محمد الطبسي في تخريج له قال عمرو بن شعيب ليس بتابعي، وقد روى عنه نيف وسبعون رجلا من التابعين. اهـ

قال أبو عبدالله: وبعد هذه النقول يقال لهؤلاء: أن العبرة ليس كبر السن وليس وجود الشيب في اللحى وإنما الأمر كله هو العلم والنبوغ فيه، والحرص على التزود منه والدعوة إليه.

وجوب توقف العالم فيما لا يعلم

قال الله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}[الإسراء:٣٦]، وقال تعالى: {قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ

وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللهّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[يونس: ٦٨] وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهّ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهّ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [الأنعام: ٢١] وقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهّ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهّ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: ٩٣] وقال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهّ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الأنعام: ١٤٤] كل هذا الوعيد فيمن يفتري على الله عزوجل وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا يتأكد في حق العالم فإنه في حقه أعظم لمعرفته عظم حرمة ذلك الأمر وخطره في تضليل العباد.

قال ابن مسعود: من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم لا أعلم. رواه البخاري (٤٧٧٤) ومسلم (٢٧٩٨).

وأخرج البيهقي بسند صحيح عن ابن عجلان عن أبيه قال: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله.

وقال مالك: من فقه العالم أن يقول: لا أعلم فإنه عسى أن يهيأ له الخير.

وقال ابن المنكدر: العالم بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل بينهم.

وبكى ربيعة فقيل له ما يبكيك؟ قال: استفتي من لا علم له وظهر في الإسلام أمر عظيم.

وقال: من بفتي ها هنا أحق بالسجن من السارق.

وقال الآجري في "أخلاق العلماء" ص(٨٨): وأما الحجة للعالم يسأل عن الشيء لا يعلمه فلا يستنكف أن يقول: لا أعلم إذا كان لا يعلم وهذه طريقة أئمة المسلمين.

وقال ابن جرير في "تفسيره" (١/ ٦٢): وأما الأخبار التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من التابعين بإحجامه عن التأويل فإن فعل من فعل ذلك منهم كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في النوازل والحوادث مع إقراره بأن الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه إلا بعد إكمال الدين به لعباده وعلمه بأن لله في كل نازلة وحادثة حكما موجودا بنص أو دلالة فلم يكن إحجامه عن القول في ذلك إحجام جاحد أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهر عباده ولكن إحجام خائف أن لا يبلغ في اجتهاده ما كلف الله العلماء من عباده فيه، فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من العلماء السلف إنما كان إحجامه عنه حذرا أن لا يبلغ أداء ما كلف من إصابة صواب القول فيه لا على أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم.

وقال القرطبي في "تفسيره" (١/ ٣٢٦) الثانية : الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدري اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العلم فيبقى ناس جهّال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون، وأما ما ورد من الأخبار، وكان علي يقول: وأبردها على الكبد ثلاث مرات، قالوا: وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم.

وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال: لا علم لي بها فلما أدبر الرجل قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر سئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به، ذكره الدارمي في سننه.

وفي صحيح مسلم عن ابن عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بهية قال: كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج أو علم ولا مخرج ؟ فقال له القاسم: وعم ذاك ؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى: ابن أبي بكر وعمر فقال له القاسم: أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة، فسكت فما أجابه.

وقال مالك بن أنس: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساه من بعده لا أدري حتى يكون أصلا في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري، قال: لا أدري.

وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم، قال ابن عبد البر: من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم.

قال أبوعبدالله: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام ! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغن وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى.

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٢٠٦): فصل: **من قال: لا أدري فقد أفتى**: إذا صح قصد العالم استراح من كلف التكلف فإن كثيرا من العلماء يأنفون من قول لا أدري فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال: جهلوا الجواب و إن كانوا على غير يقين مما قالوا و هذا نهاية الخذلان.

توبيخ العلماء في عدم التبليغ لدين الله الحق

وكل وعيد في القرآن للمؤمنين فالعلماء أول من يدخل فيه لأنهم في رأس المعنيين ولذا حذر الله عزوجل العلماء أشد تحذير من عدم العمل بالعلم وعدم تبليغ دين الله عزوجل، ومن عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال النووي في "شرح مسلم" (٢/ ٢٣): ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر وينهى عنه وذلك يختلف بختلاف الشيء فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.

وقال ابن جرير في قوله تعالى: {لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون} هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون في الإثم والعدوان وأكل الرشى في الحكم من اليهود من بني إسرائيل ربانيوهم - وهم أئمتهم المؤمنون وساستهم العلماء بسياستهم - وأحبارهم وهم علماؤهم وقوادهم { عن قولهم الإثم } يعني : عن قول الكذب والزور وذلك أنهم كانوا يحكمون فيهم بغير حكم الله ويكتبون كتبا بأيديهم ثم يقولون: هذا من حكم الله وهذا من كتبه يقول الله: {فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون} [البقرة: ٧٩]، ...وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها.

عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية : {لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون}.

عن عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه وهذه أشد آية على العلماء.

وقال الشوكاني: في قوله تعالى {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون} فقوله: {أفلا تعقلون} استفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم وهو أشد من الأول وأشد وأشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع ونادوا به في المجالس إيهاما للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لأستارهم وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمة لتلاوته..ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع ومن توبيخ إلى توبيخ فقال : إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ذائدا لكم عنه زاجرا لكم منه فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم.

وقال في قوله تعالى {لبئس ما كانوا يصنعون} وهذا فيه زيادة على قوله: {لبئس ما كانوا يعملون} ... فوبخ سبحانه الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصي فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم ويفرجوا لها عن قلوبهم فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بأن كفهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع بل هم أشد حالا وأعظم وبالا من العصاة، فرحم الله عالما قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر فهو أعظم ما افترضه الله عليه وأوجب ما أوجب عليه النهوض به اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وأعنا على ذلك وقونا عليه ويسره لنا وانصرنا على من تعدى حدودك وظلم عبادك إنه لا ناصر لنا سواك ولا مستعان غيرك يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٣/ ٢٠): فليحدث الحاضر منكم الغائب عني فإن بالتحديث يحصل التبليغ ويحفظ الحديث، وفيه وجوب تبليغ العلم وهو الميثاق المأخوذ على العلماء.

وقال أيضاً: وقد استفدنا وجوب تبليغ العلم على حامليه وهو الميثاق الذي أخذه الله على العلماء. "فيض القدير" (٣/ ٢٠٦)

وقال في "فيض القدير" (٥/ ٤٠٦): على العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون وأن لا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون فإن البخل لؤم وظلم والمنع حسد وإثم وكيف يسوغ لهم المنع بما منحوه جوادا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زادوا نماءا وإن كتموه تناقص ووهي ولو استن بذلك من تقدم لما وصل العلم إليهم وانقرض بانقراضهم وصاروا على مر الأيام جهالا وتقلب الأحوال وتناقصها أرذالا { وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه}، وما أحسن ما قال بعضهم :

أفد العلم ولا تبخل به . . . وإلى علمك علما فاستزد

من يفده يجزه الله به . . . وسيغني الله عمن لم يفد

أخلاق العلماء

الأخلاق الحسنة مأمور بها الناس جميعاً وحث الله عزوجل عليها فقال تعالى {وأحسن كما أحسن الله إليك} وقال تعالى {وقولوا للناس حسناً}، وكذا رسوله صلى الله عليه وسلم، حث عليها، ومن ذلك ما جاء في جملة أحاديث منها:

حديث: <أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً> .

وحديث: < إنما بعث لإتمم مكارم الأخلاق>.

وحديث: <كان خلقه القرآن>.

وحديث: <أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً>.

قال ابن القيم في "أعلام الموقعين" (٤/ ٢٠٠): فليس صاحب العلم والفتيا إلى شيء أحوج منه إلى الحلم والسكينة والوقار فإنها كسوة علمه وجماله فإذا فقدها كان علمه كالبدن العاري من اللباس.

وقال بعض السلف: ما قرن شيء إلى شيء أحسن من علم إلى حلم.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ٢٧)عند حديث < رحم الله موسى > بن عمران كليم الرحمن < قد أوذي بأكثر من هذا > الذي أوذيت به أي

آذاه قومه بأشد مما أوذيت به من تشديد فرعون وقومه ... فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسمحها ولله عقولهم ما أرزنها وأرجحها.

قال أبوعبدالله: والعلماء هم وراث الأنبياء، وهم أحق بهذه الصفات الحميدة.

وقال البيهقي في "شعب الإيمان" (٢/ ٣١٦): أخبرنا أبوعبد الله الحافظ أنا الحسن بن محمد بن إسحاق قال : سمعت أبا عثمان سعيد بن عثمان الحناط يقول سمعت ذا النون يقول : ثلاثة من أعلام الخير في العالم التقي: قمع الطمع عن القلب في الخلق، و تقريب الفقير والرفق به في التعليم و الجواب، و التباعد من السلطان.

وثلاثة من أعلام الخير في المتعلم: تعظيم العلماء بحسن التواضع لهم، و العمى عن عيوب الناس بالنظر في عيب نفسه، و بذل المال في طلب العلم إيثارا له على متاع الدنيا.

وثلاثة من أعلام الفهم: تلقف معاني الأقوال، و إنجاز الجواب في المقال، و كفاية الخصم مؤونة التكرار.

وثلاثة من أعلام الأدب: الصمت حتى يفرغ المتكلم من كلامه، ورد الجواب إذا التقى منه الجواب، و إعطاء الجليس حظه من المؤانسة و المكاثرة في وجهه حتى يقوم.

قال أبوعبدالله: شيخ البيهقي الحاكم وهو معلوم، وشيخه هو الحسن بن محمد بن إسحاق رجل صاحب قرآن وخير كما قال الخطيب في تاريخه،

وسعيد بن عثمان الحناط، وقيل الخياط، له ذكر في تاريخ دمشق وتاريخ بغداد وليس فيه جرح و لا تعديل، وشيخه ذو النون وهو ثوبان المصري ضعيف في الحديث زاهد من الزهاد، والأثر عنه وهو جيد في الباب.

وقال الدارمي في رده على بشر المريسي"نقض الدارمي" (٢/ ٦٥٩): ويحك إنما قال القوم هذا تخوفا على أنفسهم أن يكونوا قد أوتوا منه الكثير فلم يوفقوا لاتباعه كما يجب ولم يتخلقوا بأخلاق العلماء الصالحين قبلهم من السكينة والوقار والورع والعبادة ولم يتأدبوا بأحسن آدابهم، فقد سمعت يحيى بن يحيى يقول: قال ابن المبارك: طلبنا العلم فأصبنا منه شيئا فطلبنا الأدب فإذا أهله قد ماتوا، وكما قال الشعبي: زين العلم حلم أهله، وكما قال ابن سيرين: ذهب العلم وبقي منه غبرات في أوعية سوء، وكان تخوفهم على أنفسهم بالحكايات التي حكيتها عنهم عسى أن لم يرزقوا هذه الآداب وما يحتاج إليه العلم حتى يخلص لوجه الله تعالى وكان ذلك منهم إعظاما للعلم وإجلالا له لا استخفافا به وتعريضا لإبطاله كما فعلت أنت، وسمعت الطيالسي أبا الوليد أنه سمع ابن عيينة يقول: طلبت هذا العلم يوم طلبته لغير الله فأعقبني ما ترون.

قال أبو سعيد: لم أعرف لنفسي يوم طلبته تلك النية الخالصة فأعقبني منه أني اشتغلت بتحديث الناس به لا بالعمل به والزهادة في الدنيا والعبادة، وقد روي عن الشعبي أنه قال: وددت أني لم أسأل عن شيء أي لما أن الذي سألت عنه صار علي حجة، وقال الشعبي أيضاً: إنا لسنا لسنا بفقهاء ولكنا رواة الحديث، وكما قال الحسن: هل رأيت فقيها قط، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة لا يداري ولا يماري بنشر حكم الله فإن قبلت منه

حمد الله، وإن ردت حمد الله، فتخوف القوم أنهم لم يكونوا من أهله وقد كانوا أهله وما زادهم تخوفهم من هذا وما أشبهه في قلوب المؤمنين إلا حبا وعظما وللعلم توقيرا وإجلالا إذ خافوا أن لا يكونوا من صالحي أوعيته.

حدثنا سعدويه عن المبارك بن فضالة عن الحسن قال: ما رأيت فيما مضى وفيما بقي مؤمنا ازداد إحسانا إلا ازداد شفقة ولا مضى منافق ولا بقي ازداد إساءة إلا ازداد بالله غرة. اهـ

وقد ذكر الغزالي رحمه الله جملة الأخلاق الحسنة والحميدة التي ينبغي الاتصاف بها، وذكر الأخلاق الذميمة التي ينبغي البعد عنها، ومن جمالها أنقلها هنا:

قال الغزالي في "إحياء علوم الدين" (٤/ ٤٣٢): البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه، والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع له.

هذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة، فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب

نفسه بالاتصاف بالمنجيات فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم، مثلا فيخط عليها، واشتغل بالباقي.. وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره.

بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها، ..

فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربي في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق، قال صلى الله عليه وسلم: <ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم> ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم المتقي...فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم...فهذا القدر كاف في التنبيه على مجارى فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عنه ربه تعالى.

أعظم خلق على العالم أن يتخلق به هو الإخلاص لله تعالى

وهذا ابن الجوزي ينادي العلماء ويحثهم على الإخلاص، بكلام بليغ مؤثر فقال: في "المدهش" (١/ ٣٩٨): يا معاشر العلماء أتقنعون من الصفات بالأسماء، أتؤثرون الأرض على السماء، أفي السكر أنتم أم في الإغماء، أترضون بالثريا الثرى، أتغمضون العيون من غير كرى، أتنامون فمن يحمد السرى، أتحيدون وفي الأنف البرى، أتحلون عقد {إن الله اشترى}، إنكم لأحق بالحزن فيما أرى، احضروا ناحية لا تكلفكم الكرى:

يا قومنا هذي الفوائد جمة فتخيروا قبل الندامة وانتقوا

إن مسكم ظمأ يقول نذيركم لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا

يا معاشر العلماء قد كتبتم ودرستم ثم إن طلبكم العلم فلستم في بيت العمل ثم لو ناقشكم الإخلاص لا فلستم شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعزع {أين شركائي} وأما شجرة الرياء فاجتثت عند نسمة (وقفوهم) كم متشبه بالمخلصين في تخشعه ولباس وأفواه القلوب تنفر من طعم مذاقة. اهـ

وقال الغزالي في "إحياه": العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد

تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله، فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو في موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه، وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك ولا مطمع له في سلامة العوام، فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوى في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره، وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق وليقل لهم إن دين الإسلام مستغن عني فإنه قد كان معمورا قبلي

وكذلك يكون بعدي ولو مت لا تنهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عني وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندارس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم.

وقال النووي في "شرحه على مسلم" (١٣/ ٥٠): قوله صلى الله عليه وسلم فى الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار، دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال كما قال {الله تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} وفيه أن العمومات الواردة فى فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصا، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين فى وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٦/ ٣٧٠): من تعاطى العلم ليدخله في محافل العلماء ويقدمه على الأقران والنظر أو يرفع منصبه في مجالس الأمراء وليتوصل به إلى الصلة والأرزاق وولاية الأوقاف ونحو ذلك فالجهل خير منه والويل لهذا العالم فإن الشيطان قد أغواه وأنساه متقلبه ومثواه ذكره الغزالي.

وقال هشام الدستوائي كما ذكره عنه الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٧/ ١٥٣): والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عزوجل.

قلت أي الذهبي: والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، فهذا أيضا حسن، ثم نشروه بنية صالحة. اهـ

وقال المناوي في "فيض القدير" (٦/ ٣٦٩): روى سحنون عن ابن وهب عن عبدالعزيز بن أبي حازم سمعت أبي يقول كان العلماء فيما مضى إذا لقي العالم من هو فوقه في العلم يقول هذا يوم غنيمة وإذا لقي مثله ذاكره، وإذا لقي دونه لم يزه عليه، واليوم يعيب الرجل من فوقه ابتغاء أن ينقطع عنه حتى يرى الناس أنه ليس بهم حاجة إليه، ولا يذاكر مثله، ويزهو على من هو دونه فهلك الناس، هذا في ذاك الزمان فما بالك بالناس الآن وما انطووا عليه من جحد الفضائل مع قيام الدلائل وحب الرياسة والتعظيم والتسارع إلى نبذ من تلوح عليه شواهد العلم بالقصور ويلتمسون بكثرة الانتقاد العثرات ويسترون رسوم الحسنات ببعض السقطات وربما رأى بعضهم استحقاق العلم بالتوارث من الآباء لكون المنصب كان لأبيه وقد نص القرافي أنه من البدع المحرمة. اهـ

وقال البيهقي في "شعب الإيمان" (٢/ ٢٨٢): فصل: و ينبغي لطالب العلم أن يكون تعلمه و للعالم أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى جده لا يريد به التعلم أن يكسب بما تعلمه مالا أو يزداد به في الناس جاها أو على أقرانه استعلاء أو لأضداده أقماعا و لا يريد العالم بتعليمه أن يكثر الآخرون عنه و

إذا أحصوا وجدوا أكثر من الآخذين عن غيره و لا أن يكون علمه أظهر في الناس من علم غيره و يريد العالم أداء الأمانة بنشر ما حصل عنده و أحيا معالم الدين و صيانتها عن أن يدرس أو يزول ،عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : لولا آية في كتاب الله لما حدثتكم ثم قرأ : {و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه}، ويريد المتعلم عبادة الله عز و جل فطلب علم الدين ليوصل بما يتعلمه إلا العمل بما يرضى الله عنه و أن يكثر العلماء فيكون ذلك أحوط للعلم و أحرى لبقائه إن انقرض أحدهم و بالله التوفيق.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ١٧٣): قال الغزالي في الشرك الأصغر: عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء فضلا عن عامة العباد وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وإنما يبتلى به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما نهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم فنازعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى إطلاع الخلف ولم تقنع بإطلاع الخالق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات وتوقيه للشبهات وتحمله مشقات العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في الإعزاز ونظروا إليه بعين الاحترام وتبركوا بلقائه ورغبوا في بركته ودعائه وفاتحوه بالسلام والخدمة وقدموه في المجالس والمحافل وتصاغروا له فأصابت النفس في

ذلك لذة هي من أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية وإنما حياته لهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها إلا العقول النافذة القوية ويرى أنه يخلص في طاعة رب العالمين وقد أثبت اسمه في جريدة المنافقين. اهـ

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ١٧): إني تدبرت أحوال أكثر العلماء و المتزهدين فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها و معظمها من قبل طلبهم للرياسة، فالعلم منهم يغضب إن رد عليه خطؤه و الوعظ متصنع بوعظه و المتزهد منافق أو مراء فأول عقوباتهم إعراضهم عن الحق شغلا بالخلق و من خفي عقوباتهم سلب حلاوة المناجاة و لذة التعبد إلا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض بواطنهم كظواهرهم بل أجلى و سرائرهم كعلانيتهم بل أحلى و هممهم عند الثريا بل أعلى، إن عرفوا تنكروا و إن رئيت لهم كرامة أنكروا فالناس في غفلاتهم و هم في قطع فلاتهم تحبهم بقاع الأرض و تفرح بهم أملاك السماء نسأل الله عز و جل التوفيق لأتباعهم و أن يجعلنا من أتباعهم.

وقال في "صيده" (١/ ١٩): علماء الدنيا ينظرون إلى الرياسة فيها و يحبون كثرة الجمع و الثناء و علماء الآخرة بمعزل من إيثار ذلك و قد كانوا يتخوفونه و يرحمون من بلي به، و كان النخعي لا يستند إلى سارية و قال علقمة : أكره أن يوطأ عقبي و يقال علقمة و كان بعضهم إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام عنهم و كانوا يتدافعون الفتوى و يحبون الخمول مثل

القوم كمثل راكب البحر و قد خب فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة، و إنما كان بعضهم يدعوا لبعض و يستفيد منه لأنهم ركب تصاحبوا فتوادوا فالأيام و الليالي مراحلهم إلى سفر الجنة.

العلماء هم أهل الخشية

قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً}[الإسراء:١٠٧]

قال أبو جعفر: حدثنا أحمد بن منيع قال : ثنا عبد الله بن المبارك قال : أخبرنا مسعر عن عبد الأعلى التيمي أن من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق أن لا يكون أوتي علما ينفعه؛ لأن الله نعت العلماء، فقال {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان} الآيتين.

قال أبوعبدالله: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه من طريق مسعريه، والدارمي في مقدمة سننه، وهو صحيح الإسناد.

وقال ابن جرير في قوله { إنما يخشى الله من عباده العلماء }:

يقول تعالى ذكره: إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء وأنه يفعل ما يريد لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه.

وقال ابن كثير: قال تعالى بعد هذا: { إنما يخشى الله من عباده العلماء} أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير

العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال: قال أحمد بن صالح المصري عن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب، قال أحمد بن صالح المصري: معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية وإنما العلم الذي فرض الله عزوجل أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله: نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه.

وقال القرطبي: في تفسير قوله تعالى : { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع } أي بالدمع وهو في موضع الحال وكذا { يقولون } وقال امرؤ القيس:

فقاضت دموع العين مني صبابة...على النحر حتى بل دمعي محملي

وخبر مستفيض إذا كثر وانتشر كفيض الماء عن الكثرة، وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يصعقون ويسألون ولا يصيحون ويتحازنون ولا يتموتون كما قال تعالى { الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله } [الزمر : ٣٢] وقال : { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم } [الأنفال : ٢].

وقال الشوكاني: أخبر سبحانه بقوله : { إنما يخشى الله من عباده العلماء } أو هو من تتمة قوله : { إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب } على معنى إنما

يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته وهم العلماء به وتعظيم قدرته.

وقال أبو مسعود: وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء.

وقال النسفي: في قوله تعالى {إنما يخشى الله من عباده العلماء} أي العلماء به الذين علموه بصفاته فعظموه ومن ازداد علما به ازداد منه خوفا ومن كان علمه به أقل كان آمن وفى الحديث أعلمكم بالله أشدكم له خشية وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن أن معناه إن الذين يخشون من عباده العلماء دون غيرهم ولو عكس لكان المعنى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله ولا يخشون أحدا إلا الله وبينهما تغاير ففى الأول بيان أن الخاشين هم العلماء وفي الثانى بيان أن المخشى منه هو الله تعالى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٧/ ٢١): أهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله، .. وفى الصحيح عن النبى انه قال: < والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده> وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة.

العلماء هم أهل التواضع

قال تعالى معلما رسوله ويحثه على طلب العلم {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً }[طه:١١٤]

قال الألوسي في "روح المعاني" (١٩/ ١٧٠): وفي الآية أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه مما أوتياه من الملك العظيم وتحريض العلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن في عباد الله تعالى من يفضلهم في العلم.

وقال النووي في "شرحه على مسلم" (١٦/ ٢٢٥): وفي هذا الحديث -أي حديث عبدالله بن عمرو بقبض العلماء- الحث على حفظ العلم وأخذه عن أهله واعتراف العالم للعالم بالفضيلة.

العلماء أهل صبر على الجاهل

قال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ٨٣) عند حديث < ساقي القوم آخرهم شربا > قال في البحر: أشار بهذا الخبر وما قبله إلى أن كل من ولي شيئا من أمور الناس يجب عليه تقديم مصلحتهم على حظ نفسه والنصح لهم في جليل الأمور ودقيقها فمنهم السلاطين المتقلدون لأعباء الأمة الحامون للبيعة والعلماء الحافظون للشريعة المعلمون الدين والتجار الذين يتولون منافع أبدانهم وأصحاب الحرف الذين يعاونونهم والواجب على السلطان

الذب عنهم والنصح لهم وعلى العلماء تعليم الجهال برفق ونصح وصبر على تعليم البليد وتفريغ وقتهم ونشاطهم لذلك ولا يكثر عليهم فيملوا ولا يغلظ فينفروا ولا يريدوا به شيئا من عرض الدنيا.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ٣٨٢): العلماء بالعلوم الشرعية أمناء الله على خلقه لحفظهم الشريعة من تحريف المبطلين وتأويل الجاهلين ففيه أنه يجب الرجوع والتعويل في أمر الدين عليهم والأمناء جمع أمين وهو الثقة الحافظ لما أوهن عليه وقد أوجب الحق سبحانه سؤالهم والرجوع إليهم حيث قال { فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } قاله الغزالي.

وإن كانوا أمناء الله على خلقه فيجب أن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلد أو محلة أو مسجد بتعليم أهلها دينهم وتمييز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل بل يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء وهم لم يتركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في الجامع ويدورون على دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا بعد واحد فيرشدونهم فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن من ظهر على وجهه برص ولا مرآة له لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء وعلى السلاطين أن يرتبوا في كل محلة من يعلم الناس دينهم فإن الدنيا دار مرض إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرض القلوب أكثر من الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام ديار المرضى فكل مريض لا يقبل العلاج بمداواة العالم سلم للسلطان ليكف شره عن الناس كما يسلم الطبيب المريض لمن يحميه.

قال الماوردي: فعلى العلماء أن لا يعنفوا متعلما ولا يحتقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فإن ذلك أدعى إليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم. "فيض القدير" (٤/ ٣٢٨).

العلماء وأهمية الشورى لهم

قال تعالى {وأمرهم شورى بينهم} وقال {وشاورهم في الأمر} قال البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام: وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وقال ميمون بن مهران: كان أبو بكر الصديق إذا أعياه أمر دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم.

وقال ابن القيم في "إعلام الموقعين" (٤/ ٢٥٦): وإن كان عنده من يثق بعلمه ودينه فينبغي له أن يشاوره ولا يستقل بالجواب ذهاباً بنفسه.

العلماء أهل عفو

قال ابن عبدالبر في "الاستذكار" (٨/ ٢٧٥): يندب على الأمراء وسائر الحكام والعلماء أنه ينبغي لكل واحد منهم أن يتجافى عن الانتقام لنفسه تأسيا بنبيه صلى الله عليه وسلم ولا ينسى الفضل والأخذ به في العفو عمن ظلمه.

العزلة الشرعية للعالم

قال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٢٢٩): فصل : فضل عزلة العالم

ما أعرف للعالم قط لذة و لا عزا و لا شرفا و لا راحة و لا سلامة أفضل من العزلة فإنه ينال بها سلامة بدنه و دينه و جاهه عند الله عز وجل و عند الخلق لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم و لا يعظم عندهم قد المخالط لهم و لهذا عظم قدر الخلفاء لإحتجابهم و إذا رأى العوام أحد العلماء مترخصا في أمر مباح هان عندهم فالواجب عليه صيانة علمه و إقامة قدر العلم عندهم.

و قال سفيان الثوري : تعلموا هذا العلم و اكظموا عليه و لا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب.

فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر، و قد قال صلى الله عليه و سلم لعائشة : < لو لا حدثنا قومك في الكفر لنقضت الكعبة و جعلت لها بابين >، و بيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قل عندهم و إن كان مباحا فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية.

فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظا لهم و متى أراد مباحا فليستتر به عنهم

و هذا القدر الذي لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قد قدم الشام راكبا على حمار و رجلاه من جانب فقال : < يا أمير المؤمنين يتلقاك عظماء الناس فما أحسن ما لاحظ > إلا أن عمر رضي الله عنه

أراد تأديب أبي عبيدة بحفظ الأصل فقال: إن الله أعزكم بالإسلام فمهما طلبتم العزة في غيره أذلكم.

و المعنى ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الأفعال، و إن كانت الصور تلاحظ، فإن الإنسان يخلو في بيته عريانا فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين و عمامة و رداء، و مثل هذا لا يكون تصنعا و لا ينسب إلى كبر، و قد كان مالك بن أنس يغتسل و يتطيب و يقعد للحديث و لا تلتفت يا هذا إلى ما ترى من بذل العلماء على أبواب السلاطين فإنه العزلة أصون للعالم و العلم و ما يخسره العلماء في ذلك أضعاف ما يربحونه، و قد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة و عن قول هذا سكتوا عنه و هذا فعل الحازم.

فإن أردت اللذة و الراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك و كن معتزلا عن أهلك يطب لك عيشك و اجعل للقاء الأهل وقتا فإذا عرفوه تصنعوا للقائد فكانت المعاشرة بذلك أجود و ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كتبك و تجري في حلبات فكرك، و إحيرس من لقاء الخلق و خصوصا العوام، واجتهد في كسب يعفك عن الطمع فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا.

و قد قيل لا بن المبارك : ما لك لا تجالسنا ؟ فقال : أنا أذهب فأجالس الصحابة و التابعين و أشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه.

و متى رزق العالم الغنى عن الناس و الخلوة فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذة وإن رزق فهما يرتقي إلى معاملة الحق و مناجاته

فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات، نسأل الله عز وجل همة عالية تسمو إلى الكمال و توفيقا لصالح الأعمال فالسكون طريق الحق أفراد.

وقال في "صيده" (١/ ٣٤٤): لا يمكن الانقطاع الكلي إلا بقطع الطمع و لا ينقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير أو يتجر بتجارة أو أن يكون له عقار يستغله، فإنه متى احتاج تشتت الهم، ومتى انقطع العالم عن الخلق و قطع طمعه فيهم، و توفر على ذكر الآخرة فذاك الذي ينفع و ينتفع به.

العلماء ليس عندهم الإعجاب والغرور

ترك الكبر داع إلى السلامة من شر الناس فينتفي عنه بتركه ما يترتب عليه من أنواع الأذى وضروب المهالك.

قال الشافعي : التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من أخلاق اللئام وأرفع الناس قدرا من لا يرى قدره وأكبرهم فضلا من لا يرى فضله.

وقال القاضي أبو الطيب: من تصدى قبل أوانه فقد تصدى لهوانه.

وقال الماوردي: الكبر يكسب المقت ويلهي عن التأله ويوغر صدور الإخوان.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٣/ ٣٠٦): إعجاب المرء بنفسه، قال القرطبي: وهو ملاحظة لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منّة الله، فإن وقع على الغير واحتقره فهو الكبر.

وقال ابن عبدالبر: من أفضل آداب العالم تواضعه وترك الإعجاب بعلمه وبعد حب الرياسة عنه. "جامع بيان العلم" (٢٢٣)

وقال الذهبي في "السير" (١٨/ ١٩٢): من طلب العلم للعمل كسره العلم وبكى على نفسه ومن طلب العلم للمدارسة والافتاء والفخر والرياء تحامق واختال وازدرى بالناس وأهلكه العجب ومقتته الأنفس.

قال الغزالي: أحذرك ثلاثا من خبائث القلب هي الغالبة على متفقهة العصر وهي مهلكات وأمهات لجملة من الخبائث سواها الحسد والرياء والعجب فاجتهد في تطهير قلبك منها فإن عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز ولا تظن أنه يسلم لك بنية صالحة في تعلم العلم وفي قلبك شيء من الحسد والرياء.

والعجب فأما الحسد فالحسود هو الذي ينشق عليه إنعام الله على عبد من عباده بمال أو علم أو محبة أو حظ حتى يحب زوالها عنه وإن لم يحصل له شيء فهو المعذب الذي لا يرحم فلا يزال في عذاب فالدنيا لا تخلو عن كثير من أقرانه فهو في عذاب في الدنيا إلى موته ولعذاب الآخرة أشد وأكبر.

وأما الهوى المتبع فهو طلبك المنزلة في قلوب الخلق لتنال الجاه والحشمة وفيه هلك أكثر الناس وأما العجب فهو الداء العضال وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العز والاستعظام ونظره لغيره بعين الاحتقار وثمرته أن يقول أنا وأنا كما قال إبليس ونتيجته في المجالس التقدم والترفع وطلب التصدر وفي المحاورة الاستنكاف من أن يرد كلامه وذلك مهلك للنفس في الدنيا والآخرة.

قال الزمخشري : الإعجاب هو فتنة العلماء وأعظم بها من فتنة.هـ

وقال العيني في "عمدة القاري" (٢٢/ ١٤٠): الكبر بكسر الكاف وسكون الباء الموحدة وهو ثمرة العجب وقد هلك بها كثير من العلماء والعباد والزهاد.

وقال المناوي في "فيض القدير" (١/ ١٥٤): وآفات الكبر كثيرة وما من خلق ذميم إلا والكبر محتاج إليه مصاحب له وقلما ينفك عنه العلماء بل والعباد والزهاد إذ يعجبون بكثرة أتباعهم وربما سار الواحد وأتباعه حوله ولو انفرد ساءه ذلك ولو لم يكن من الوعيد للمتكبر إلا نفي محبة الله له في النصوص القرآنية وخبر لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر لكفى.

وقال النووي في "شرحه على مسلم" (٣/ ١٧٦): وفي هذا الحديث من الأدب ما قاله العلماء أنه يستحب للمحدث وللمعلم والمفتى إذا طلب منه ما يعلمه عند أجل منه أن يرشد إليه، وان لم يعرفه قال اسأل عنه. اهـ

وقد ذم الله تعالى من أعجب بنفسه ولم ينسب النعمة لأهلها كما في قصة قارون حيث قال ربنا سبحانه وتعالى {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ }[القصص:٧٨]، وقال تعالى {فَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}[الزمر:٤٩].

وقال الله تعالى مخبرا عن تعليم نبيه سليمان التواضع وأخذه العلم وإن كان ممن هو دونه في المنزلة، قال الألوسي: إن الله تعالى ألهم الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه وتنبيها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به ليتحاقر إليه نفسه ويصغر إليه علمه ويكون لطفا به في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة انتهى. "روح المعاني" (١٩/ ١٨٦)

وقال ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٢٠/ ٦٠٠): وطالب الرياسة ولو بالباطل ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت تغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً.

وقال الذهبي في "السير" (١٨/ ١٩٢): قلم من رجل نطق بالحق وأمر بالمعروف فيسلط الله عليه من يؤديه لسوء قصده وحبه للرياسة الدينية فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء. اهـ

وقال أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي في "الواضح في أصول الفقه" (١/ ٥٢٢): إلى الدنيا والمفاخرة والمباهاة بها بما فيه اللذة وما يدعو إلى الشهرة دون ما توجبه الحجة وقضي به العقل والمعرفة فعلى نحو هذا من الأسباب تكون الآفة الصارفة والموجبة منه. اهـ

العلماء ليس عندهم الحسد

قال الذهبي في "السير" (١٠/ ٥٨): قال أحمد لمن حوله: اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم وحرمه قرناءه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه وبئست الخصلة في أهل العلم.

وقال ابن عبدالبر في "التمهيد" (١٧/ ١٢٤): وما زال العلماء قديما يأخذ بعضهم عن بعض ويأخذ الكبير عن الصغير والنظير عن النظير ونفخ الشيطان في أنوف كثير من أهل عصرنا ببلدنا فأعجبوا بما عندهم وقنعوا بيسير ما علموا ونصبوا الحرب لأهل العناية وأبدوا له الشحناء والعداوة حسدا وبغيا وقديما كان في الناس الحسد ولقد كان ذلك فيما روي من إبليس لآدم ومن ابني آدم بعضهما لبعض ولقد أحسن سابق رحمه الله حيث يقول:

جنى الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء أبناء

وقد ذم الله الحاسدين في كتابه ونهى عن الحسد رسوله صلى الله عليه وسلم فقال لا تحاسدوا ثم قال إذا حسدتم فلا تبغوا ولا معصوم إلا من عصمه الله فهو حسبنا لا شريك له. اهـ

وقال المناوي في "فيض القدير" (٣/ ٤١٤): قال الغزالي: الحسد هو المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات وهو الداء العضال الذي ابتلي به كثير من العلماء فضلا عن العامة حتى أهلكهم وأوردهم النار وحسبك أن الله أمر بالاستعاذة من شر الحاسد فقال : { ومن شر حاسد إذا حسد } كما أمر بالاستعاذة من شر الشيطان فانظر كم له من شر وفتنة حتى أنزله منزلة

الشيطان والساحر وينشأ عن الحسد إفساد الطاعات وفعل المعاصي والشرور والتعب والهم بلا فائدة وعمى القلب حتى لا يكاد يفهم حكما من أحكام الله والحرمان والخذلان فلا يكاد يظفر بمراد نفس دائم وعقل هائم وغم لازم اه وزعم بعضهم أنه لا حيلة للمحسود في إزالة حسد الحاسد فإن سعى فيه ضاع سعيه كما قال :

كل العداوة قد ترجى إزالتها . . . إلا عداوة من عادك في الحسد

ويكفي في قبح الحسد أنه أول ذنب عصى الله به لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود إلا الحسد كما أن قابيل لم يحمله على قتل هابيل إلا الحسد وقد عم وقوعه وطم.

وقال في المنهاج : ولا حيلة في دفعه حتى أعرف بعض الناس بذل جهده في استجلاب دواعي التآلف وأسباب كف التنكر مع شخص من أقرانه فلم يجد ولم يفد.

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ١٩): **تأملت التحاسد بين العلماء فرأيت منشأه من حب الدنيا** فإن علماء الآخرة يتوادون و لا يتحاسبون كما قال عز و جل : { و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا } وقال الله تعالى: { والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان و لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا }، وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي: أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر.

العلماء أهل زهد في الدنيا

قال ابن أبي الدنيا في "ذم الدنيا" (١/ ٢٩) برقم (٣٩): حدثنا علي بن مسلم أخبرنا سيار بن حاتم أخبرنا جعفر بن سليمان قال : سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني: الدنيا

قال أبوعبدالله: هذا إسناد حسن من أجل سيار بن حاتم، وهو في الزهد لابن حنبل (١/ ٣١٩) عن سيار، به.

وقال أبونعيم في "حلية الأولياء" (٤/ ٢٩): حدثنا أبو بكر الآجري ثنا عمرو بن أيوب ثنا الحسن بن حماد ثنا أبو أسامة عن عيسى بن سنان قال سمعت وهبا قال لعطاء الخراساني كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم فأصبح أهل العلم اليوم فينا يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعهم عندهم فإياك وأبواب السلاطين فإن عند أبوابهم فتنا كمبارك الإبل لا تصيب من دنياهم شيئا إلا وأصابوا من دينك مثله.

ثم قال: يا عطاء إن كان يغنيك ما يكفيك فكل عيشك يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شئ يكفيك إنما بطنك بحر من البحور وواد من الأودية لا يسعه إلا التراب.

قال أبوعبدالله: سنده فيه عيسى بن سنان، وفيه لين إلا أنه يحكي قصة سمعها ورأها، وهذا مما يقوي روايته عند المحدثين، والله أعلم، وأما الحسن

بن حماد فهو موسوم بالصلاح، وعلى كل حال فهي قصة في باب الزهد والموعظة.

وقال ابن أبي الدنيا "في ذم الدنيا" (١/ ١٧٣) برقم (٤٢٦): حدثنا الحسن بن عبد العزيز أخبرني موسى بن أبي عمران وكان أحد العلماء، قال: قدم أعرابي المدينة فصلى الجمعة فسمع الخطبة فأعجبه ما سمع فلما صلى انصرف إلى منزله ودخل الأعرابي مع من دخل فأتي بطعام فرأى من ألوان الطعام ما لم يشبه ما تكلم به فأنشأ يقول:

لقد رابني من أهل يثرب أنهم يهمهم تقويمنا وهم عصل

يذمون الدنيا وهم يرضونها أفاويق حتى ما يدر لها ثعل

إذا ركبوا الأعواد قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول يفسده الفعل

قال أبوعبدالله: إسنادها صحيح.

وقال بن عساكر في ترجمة البيهقي: وكان رحمه الله على سيرة العلماء قانعا من الدنيا باليسير. "تبيين كذب المفتري" (١/ ٢٦٦).

ذكر المزي في تهذيب الكمال في ترجمة أبي اليمان قال: قال أبو بكر محمد بن عيسى الطرسوسي سمعت أبا اليمان يقول صرت إلى مالك فرأيت ثم من الحجاب والفرش شيئا عجيبا فقلت ليس هذا من أخلاق العلماء، فمضيت وتركته ثم ندمت بعد.

وقال أبو هلال العسكري في "جمهرة الأمثال" (١/ ٣٠٣): قال بعضهم: طلب المعاش أذل عز العلماء وأحوج الأدباء إلى الجهلاء ورب مجتهد مكد وذي حظ قليل الحيلة وحريص قد خاب ومقتصد قد فاز وفي حسن الظن بالله درك الدارين.

وقال ابن القيم في "الفوائد" (١/ ١٠٠): فائدة جليلة: كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول علي الله غير الحق فى فتواه وحكمه فى خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولاسيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ولاسيما إذا قامت له شبهة فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرا لا خفاء به ولا شبة فيه أقدم على مخالفته، وقال لي مخرج بالتوبة وفى هؤلاء وأشباههم، قال تعالى {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات} وقال تعالى فيهم أيضا {فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدني ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون} فاخبر سبحانه أنهم اخذوا العرض الأدني مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أولا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه فتارة

يقولون على الله مالا يعلمون وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه، وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ويستعينوا بالصبر والصلاة ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها والآخرة وإقبالها ودوامها، وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا فى الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الأمران فإن اتباع الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء اذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات.

وقال ابن حبان في "روضة العقلاء" (٣٤): العاقل لا يبيع حظ آخرته بما قصد في العلم لما ينال من حطام الدنيا لأن العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره لأن المبتغي من الأشياء كلها نفعها لا نفسها والعلم ونفس العلم شيئان فمن أغض عن نفعه لم ينتفع بنفسه وكان كالذي يأكل والعلم له أول وآخر. اهـ

العلماء أهل زهد في السلطان

قال سفيان: لو أن العلم طلبوه لما عند الله لهابهم الناس ولكن طلبوا به الدنيا فهانوا على الناس. اهـ

وقال: ما زال العلم عزيزاً حتى حمل إلى أبواب الملوك وأخذوا عليه أجراً فنزع الله الحلاوة من قلوبهم ومنعهم العمل.

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٣٩٤): فصل: [التعفف عن مال الحكام] رأيت خلقا من العلماء و القصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم و هم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها و لا يخرجونها في حقها فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف إلى المصالح و هبه لشاعر، و ربما كان معه جندي يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فأعطاه عشرة ألاف، و ربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه، هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات، و أول ما يجري على ذاك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه و قد رأى بعض الصالحين رجلا عالما يخرج من دار يحي بن خالد البرمكي فقال : أعوذ الله من علم لا ينفع ألم ير المنكرات و لا ينكر و يتناول ل من طعامهم الذي لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبه و يحرم لذة المعاملة للحق سبحانه ثم لا يقدر لك أن يهتدي بك أحد بل ربما كان فعل هذا سببا لإضلال الناس و صرفهم عن الإقتداء به فهو يؤذي أميره لأنه يقول : لولا أنني على صواب ما صحبني و لأنكر علي، و يؤذي العوام تارة بأن يروا أن ما فيه لأمير صواب و تارة بأن الدخول عليه و السكوت عن الإنكار جائز، أو يحبب إليهم الدنيا و لا خير و الله في سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة.

و أنا أفتدي أقواما صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضى و بقيت أذكارهم تروى فتروي صدأ القلوب و تجلو صداها، هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقاط و لا يقبل مال سلطان، هذا إبراهيم الحربي يتغذى بالبقل و يرد على المعتصم

ألف دينار،.. والله أذكار القوم وما كان الصبر إلا غفوة نوم، و مضت لذات المترخصين وبليت الأبدان ووهن الدين.

فالصبر الصبر يا من و فق و لا تغبطن من اتسع له أمر الدنيا، فإنك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقا في باب الدين، ولا ترخص لنفسك في تأويل فعمرك في الدنيا قليل:

و سواء إذا انقضى يوم كسرى ... في سرور و يوم صابر كسره

و متى ضجت النفس لقلة صبر فأتل عليها أخبار الزهاد فإنها ترعوي و تستحي و تنكسر إن كانت لها همة أو فيها يقظة، و مثل لها بين ترخص علي بن المديني و قبوله مال ابن أبي داود و صبر أحمد، وكم بين الرجلين والذكرين، وانظر ما يروى عن كل واحد منهما وما يذكران به، وسيندم ابن المديني إذا قال أحمد: سلم لي ديني.

وقال ابن تيمية في "الفتاوى" (٢٧/ ٢٩٦): المنصب والولاية لا تجعل من ليس علماً مجتهداً عالما مجتهداً ولو كان الكلام في العلم والدين بالولايات والمنصب لكان الخليفة والسلطان أحق بالكلام في العلم والدين ويأت يستفتيه الناس ويرجعوا إليه فيما أشكل عليهم في العلم والدين. اهـ

وقال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ٣٨٢): إنما يتقربون إلى السلطان باستمالة قلبه وتحسين قبح فعله وما يوافق هواه وإن أخبروه بما فيه نجاته استثقلهم وأبعدهم فمخالط السلطان لا يسلم من النفاق والمداهنة والخوض في الثناء والإطراء في المدح وفيه هلاك الدين والعلماء ساسات

الناس والناس لهم تبع فلا إلباس ما لم يتلطخوا بأقذار الدنيا ويشتغلوا بشهوات النفوس عن مصالح العباد فإنهم إذا فعلوا ذلك سقطوا من مراتب العلية وهانوا على أهل الدنيا الدنية وفي الآخرة عند الله قال الثوري : احذر اللياذ بالأمراء وإياك أن تخدع ويقال لك ترد مظلمة وتدفع عن مظلوم فإن هذه خدعة إبليس اتخذها الفقهاء سلما.

وقال الخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (١/ ٣٦١): من نزه نفسه من المحدثين عن قبول أموال السلاطين: قال مالك إن عاملا من العمال بعث إلى سعيد بن المسيب بخمسة الآف درهم، فقال له الرسول بعث بهذا إليك أصلحك الله لتنفقها وتجعلها في حاجتك، قال: وسعيد جاد مجد يحاسب غلامه في نصف درهم يدعيه قبله، والغلام يقول: ليس لك عندي شيء، قال سعيد: للرسول اذهب إلى عملك، ثم عرضها عليه الرسول أيضا، فقال: اغرب عني وأبى أن يأخذها منه وكلمه إنسان في تركه أن يأخذها، فقال له ابن المسيب: هذا النصف درهم أحب إليّ منها.

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٢١٠): فصل: [القناعة بالقليل] رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء و يستذلونهم بشيء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم فإن كان لأحدهم ختمة فلان ما حضر و إن مرض قال فلان ما تردد و كل منته عليه شيء نزر يجب تسليمه إلى مثله و قد رضي العلماء بالذل في ذلك لموضع الضرورة فرأيت أن هذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم و دواؤه من جهتين : إحداهما: القناعة باليسير كما قيل: من رضي بالخل و البقل لم يستعبده أحد.

الثاني: صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدنيا فإنه يكون سببا لإعزاز العلم، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب العلم مع احتمال هذا الذل ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة قدر قوته واحتفظ بما معه أو سعى في مكتسب يكفيه ومن لم يأنف من مثل هذه الأشياء لم يحظ من العلم إلا بصورته دون معناه.

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" (١/ ٣٤٤): و ليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين فإنه يحسن للعالم الدنيا و يهون عليه المنكر و ربما أراد أن ينكر فلا يصح له فإن عدم القناعة وغلبت نفسه في طلب فضول الدنيا سلم عليه لأنه يتعرض بأربابها و إن الإنسان ليمشي في السوق ساعة فينسى بما يرى ما يعلم، فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء و الطمع في أموالهم.

حذاقة العلماء

قال شيخ الإسلام في "الرسالة التدمرية" ص(١٠٦): ومن هذا الباب الشبه التي يضل بها بعض الناس وهي ما يشتبه فيها الحق بالباطل حتى يشتبه على بعض الناس ومن أوتي العلم بالفصل بين هذا وهذا لم يشتبه عليه الحق بالباطل.

وقال ابن حجر في "فتح الباري" (٢/ ٦): وفي الحديث – أي قصة عمر بن عبدالعزيز مع عروة- وفيه استثبات العالم فيما يستغربه السامع.

وقال ابن حجر في "فتح الباري" (٤/ ١٤٨) عند حديث الاحتلام في نهار رمضان: وفيه الاستثبات في النقل والرجوع في المعاني إلى الأعلم فإن الشيء إذا نوزع فيه رد إلى من عنده علمه.

وأن للمفضول إذا سمع من الأفضل خلاف ما عنده من العلم أن يبحث عنه حتى يقف على وجهه.

وقال الإمام الدارمي في "نقضه" (٢/ ٦٠٣): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: < سيفشو الحديث عني > على معنى أنه يتداوله الحفاظ من الناس والصادق والكاذب والمتقن والمغفل وصدق رسول الله قد تبين ما قال في الروايات ولذلك ينتقدها أهل المعرفة بها فيستعملون فيها رواية الحفاظ المتقنين ويدفعون رواية الغفلاء الناسين ويزيفون منها ما روى الكذابون وليس إلى كل أحد الاختيار منها ولا كل الناس يقدر أن يعرضها على القرآن فيعرف ما وافقه منها مما خالفه إنما ذلك إلى الفقهاء العلماء الجهابذة النقاد لها العارفين بطرقها ومخارجها خلاف.

قال أبو المظفر السمعاني في "الإنتصار لأصحاب الحديث" (١/ ٥٧): قالوا قد كثرت الآثار في أيدي الناس واختلطت عليهم؟ قلنا: ما اختلطت إلا على الجاهلين بها فأما العلماء بها فإنهم ينتقدونها انتقاد الجهابذة الدراهم والدنانير فيميزون زيوفها ويأخذون جيادها ولئن دخل في غمار الرواة من وسم بالغلط في الأحاديث فلا يروج ذلك على جهابذة أصحاب الحديث ورتوت العلماء حتى أنهم عدوا أغاليط من غلط في الأسانيد والمتون بل تراهم يعدون على كل رجل منهم في كم حديث غلط وفي كم حرف حرف،

وماذا صحف فإذا لم ترج عليهم أغاليط الرواة في الأسانيد والمتون والحروف فكيف يروج عليهم وضع الزنادقة وتوليدهم الأحاديث. اهـ

تزاور العلماء بعضهم لبعض

قال ابن حجر في "فتح الباري" (١٢/ ٢٧٥) عند قصة نزول معاذ على أبي موسى الأشعري: وفيه تزاور الإخوان والأمراء والعلماء.

ابتلاء العلماء

قال الغزالي: كما لا تخلو الأنبياء من الابتلاء بالمعاندين فكذا لا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين فقلما انفك ولي أو عالم عن ضروب من الإيذاء بنحو إخراج من بلدة وسعاية إلى سلطان وشهادة عليه حتى بالكفر فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا... ولا يرضون من فعالهم الظاهرة والباطنة بالجائز بل يأخذون بأحسنها وأكملها فإنهم القدوة والمرجع في الأحكام وحجة الله على العوام.

قال الحاكم في المستدرك برقم (٨٥٨١): حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا بحر بن نصر ثنا بشر بن بكر حدثني الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير حدثني أبو سلمة عن عبد الرحمن قال : عدت أبا هريرة فسندته إلى صدري ثم قلت : اللهم أشف أبا هريرة فقال : اللهم لا ترجعها ثم قال : إن استطعت يا أبا سلمة أن تموت فمت فقلت : يا أبا هريرة إنا لنحب الحياة فقال : و الذي نفسي أبي هريرة بيده ليأتين على العلماء زمان الموت أحب إلى

أحدهم من الذهب الأحمر ليأتين أحدكم قبرا أخيه فيقول : ليتني مكانه.
هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

قال الذهبي في "التلخيص": على شرط البخاري ومسلم.

وقال ابن القيم في "إغاثة اللهفان" (٢/ ١٦٠): وقوله تعالى {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة} وهذا عام في جميع الخلق امتحن بعضهم ببعض...أمتحن العلماء بالجهّال هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على تعليمهم ونصحهم وإرشادهم ولوازم ذلك، وامتحن الجهال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم.

رجوع العلماء عند التنازع إلى كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى في كتابه الكريم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء: ٥٩]

قال الطبري: الرد إلى الله الرد إلى كتابه والرد إلى رسوله إن كان حيا فإن قبضه الله إليه فالرد إلى السنة.

{ذلك} فرد ما تنازعتم فيه من شيء إلى الله والرسول {خير} لكم عند الله في معادكم وأصلح لكم في دنياكم لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة وترك التنازع والفرقة {وأحسن تأويلا} يعن: وأحمد موئلا ومغبة وأجمل عاقبة.

وقال ابن البر في "التمهيد" (١٠/ ١٢٧): كل قول خالف السنة فمردود ولا وجه لقول ابن عباس ومن تابعه، لأن الله عز وجل قد أمر في كتابه عند تنازع العلماء وما اختلفوا فيه بالرد إلى الله ورسوله وليس في جهل السنة في شيء قد علمها فيه غيره حجة.

وقال شيخ الإسلام في "الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح" (٢/ ٢٣٨): قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا} وأولوا الأمر هم العلماء والأمراء فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله وجبت طاعتهم وإن تنازع الناس في شيء وجب رده إلى الله والرسول لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله كما قال في الآية الأخرى.

وقال ابن القيم في "إعلام الموقعين" (٢/ ٢٦٨): المقصود أن الذي هو من لوازم الشرع المتابعة والاقتداء وتقديم النصوص على آراء الرجال وتحكيم الكتاب والسنة في كل ما تنازع فيه العلماء.

وقال ابن كثير: في قوله { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول } هذا أمر من الله عزوجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى { وما اختلفتم فيه

من شيء فحكمه إلى الله } فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى {إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم { إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر } فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الأخر، وقوله { ذلك خير} أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير {وأحسن تأويلا } أي وأحسن عاقبة ومآلا.

وقال القرطبي في قوله تعالى: { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول } فأمر تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة ويدل هذا على صحته كون سؤال العلماء واجبا وامتثال فتواهم لازما.

قال ابن حجر في "فتح الباري" (٢/ ٦): وفي الحديث – أي قصة عمر بن عبدالعزيز مع عروة- وفيه: الرجوع عند التنازع إلى السنة.

وقال في "الفتح" (٤/ ١٤٨) عند حديث الاحتلام في نهار رمضان: وأن الحجة عند الاختلاف في المصير إلى الكتاب والسنة.

العالم السلفي بين أجر وأجرين

قال البغوي في "تفسيره" (١/ ٣٣٣): فأما العلماء فلهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة وإذا أخطأوا فلا إثم عليهم،

فإنه موضوع عنهم،... عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: < إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر >. اهـ

قال أبوعبدالله: وفي أجر العالم إذا اجتهد أنه بين الأجر والأجرين كلام كثير لأهل العلم عند شرح الحديث، وفي كلام أهل الأصول عند باب الاجتهاد.

وقال ابن تيمية في "الفتاوى" (٣٥/ ٦٩): فأما الصديقون والشهداء والصالحون فليسوا بمعصومين وهذا في الذنوب المحققة وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون وتارة يخطئون فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران وإذا أخطأوا فلهم أجر على اجتهادهم وخطؤهم مغفور لهم.

الخلاف بين العلماء

من سنة الله في خلقه أن جعل العباد فرقا وشيعاً، وكل طائفة من هذه الفرق تزعم التصويب معها، فيكون حصول الاختلاف بين أهل العلم، وقد يكون هذا الاختلاف في أمر يعفى عنه وذلك بحسب نوع الخلاف، فهو على نوعين:

الأول: اختلاف أفهام، وهو ما يجري بين العلماء من خلاف على المسائل فيسوغ معها الخلاف ولا يضلل صاحبها أي المجانب للصواب، وذلك كخلافهم في بعض الأحكام فمنهم من يقول بوجوب ذلك الحكم منهم من يقول باستحبابه، وهكذا.

كما قال ابن عبدالبر في التمهيد (٨ / ٣٦٧) عند قصة رجوع عمر عند وجود الطاعون: وفيه دليل على أن المسألة إذا كان سبيلها الاجتهاد ووقع فيها الاختلاف لم يجز لأحد القائلين فيها عيب مخالفه ولا الطعن عليه لأنهم اختلفوا وهم القدوة فلم يعب أحد منهم على صاحبه اجتهاده ولا وجد عليه في نفسه، إلى الله الشكوى وهو المستعان على أمة نحن بين أظهرها تستحل الأعراض والدماء إذا خولفت فيما تجيء به من الخطأ. اهـ

قال ابن عساكر في "تبيين كذب المفتري" (١/ ١٤٠): ما زال العلماء يخالف بعضهم بعضا ويقصد دفع قول خصمه إبراما ونقضا ويجتهد في إظهاره خلافه بحثا وفحصا ولا يعتقد ذلك في حقه عيبا ونقصا وقديما ما خالف أبا حنيفة صاحباه وأجابا في كثير من المسائل بما أباه والله يتغمد جميع العلماء برحمته ويحشرنا في زمرتهم بلطفه ورأفته. اهـ

قال الذهبي في "تذكرة الحفاظ" (٢ / ٧٣٠): وما زال العلماء يختلفون في المسائل الصغار والكبار والمعصوم من عصمه الله بالتجاء إلى الكتاب والسنة وسكوت عن الحوض في ما لا يعنيه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني: اختلاف تضاد، وهو ما لا يسوغ فيه الخلاف ويضلل المخالف للحق والصواب، بعد إبانة الحجة له.

أسباب الخلاف بين العلماء

قال ابن القيم في "الصواعق المرسلة" (٢/ ٥٢٠): الفصل الثالث والعشرون: في أسباب الخلاف الواقع بين الأئمة بعد اتفاقهم على أصل واحد وتحاكمهم إليه وهو كتاب الله وسنة رسوله، ذكر الحميدي في هذا فصلا من كلام أبي محمد بن حزم وهو من أحسن كلامه فرأينا سياقه بلفظه.

قال الحميدي: قال لنا الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد اليزيدي الفارسي في بيان أصل الاختلاف الشرعي وأسبابه: تطلعت النفس بعد تيقنها أن الأصل المتفق عليه المرجوع إليه أصل واحد لا يختلف وهو ما جاء عن صاحب الشرع إما في القرآن وإما من فعله أو قوله الذي لا ينطق عن الهوى فيه لما رأيت وشاهدت من اختلاف علماء الأمة فيما سبيله واحد وأصله غير مختلف فبحثت عن السبب الموجب للاختلاف ولترك من ترك كثيرا مما صح من السنن فوضح لها بعد التفتيش والبحث أن كل واحد من العلماء بشر ينسى كما ينسى البشر وقد يحفظ الرجل الحديث ولا يحضره ذكره فيفتي بخلافه وقد يعرض هذا في آي القرآن ... فعلى هذه الوجوه ترك بعض العلماء ما تركوا من الحديث ومن الآيات وعلى هذه الوجوه خالفهم نظراؤهم فأخذ هؤلاء ما ترك أولئك وأخذ أولئك ما ترك هؤلاء لا قصدا إلى خلاف النصوص ولا تركا لطاعتها ولكن لأحد الأعذار التي ذكرنا إما من نسيان وإما أنها لم تبلغهم وإما لتأويل ما وإما لأخذ بخبر ضعيف لم يعلم الآخذ به ضعف رواته وعلمه غيره فيأخذ بخبر آخر أصح منه أو بظاهر آية وقد يتنبه بعضهم في النصوص الواردة إلى معنى ويلوح منه حكم بدليل ما ويغيب عن غيره وقد كثرت الرحل إلى الآفاق وتداخل الناس وانتدب

أقوام لجمع حديث النبي وضمه وتقييده ووصل من البلاد البعيدة إلى من لم يكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منه وجمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة في الحديث وعرف الصحيح من السقيم وزيف الاجتهاد المؤدي إلى خلاف كلام رسول الله وإلى ترك عمله وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغها إليه وقيام الحجة بها عليه ولم يبق إلا العناد والتقليد. اهـ المراد قال أبوعبدالله: وله بقية حسنة ينظر من المرجع المشار إليه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: جماع الأعذار في ترك من ترك من الأئمة حديثا، ثلاثة أصناف: أحدها: عدم اعتقاده أن النبي قاله.

الثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

وقال ابن القيم في "الصواعق المرسلة" (٢/ ٥٨٠): وها هنا انقسم العلماء ثلاثة أقسام فقسم أخذوا بما بلغهم من أقوال أهل العلم، وقالوا: لا يجوز لنا أن نخالفهم ونقول قولا لم نسبق إليه وهؤلاء معذورون قبل وصول الخلاف إليهم فأما من وصل إليه الخلاف وعلم بذلك القول قائلا فما أدري ما عذره عند الله في مخالفته صريح الدليل.

وقسم: توقفوا وعلقوا القول، فقالوا: إن كان في المسألة إجماع فهو أحق ما اتبع وإلا فالقول فيها كيت و كيت، وهو موجب الدليل، ولو علم هؤلاء قائلا به لصرحوا بموافقته فإذا علم به قائل فالذي ينبغي ولا يجوز غيره أن

يضاف ذلك القول إليهم لأنهم إنما تركوه لظنهم أنه لا قائل به وأنه لو كان به قائل لصاروا إليه فإذا ظهر به قائل لم يجز أن يضاف إليهم غيره إلا على الوجه المذكور وهذه الطريقة أسلم.

وقسم ثالث: اتبعوا موجب الدليل وصاروا إليه ولم يقدموا عليه قول من ليس قوله حجة، ثم انقسم هؤلاء قسمين:

فطائفة: علمت أنه يستحيل أن تجمع الأمة على خلاف هذا الدليل، وعلمت أنه لا بد أن يكون في الأمة من قال بموجبه وإن لم يبلغهم قوله فما كل ما قاله كل واحد من أهل العلم وصل إلى كل واحد من المجتهدين وهذا لا يدعيه عاقل ولا يدعي في أحد، وقد نص الشافعي على مثل ذلك فذكر البيهقي عنه في المدخل أنه قال له بعض من ناظره فهل تجد لرسول الله سنة ثابتة متصلة خالفها الكل قلت لا لم أجدها قط كما وجدت المرسل.

وطائفة: قالت يجوز أن لا يتقدم به قائل ولكن لا يلزم انعقاد الإجماع على خلافه إذ لعل تلك النازلة تكون قد نزلت فأفتى فيها بعض العلماء أو كثير منهم أو أكثرهم بذلك القول ولم يستفت فيها الباقون ولم تبلغهم فحفظ فيها قول طائفة من أهل العلم ولم يحفظ لغيرهم فيها قول والذين حفظ قولهم فيها ليسوا كل الأمة فيحرم مخالفتهم، قالوا: فنحن في مخالفتنا لمن ليس قوله حجة أعذر منكم في مخالفتكم لمن قوله حجة فإن كنتم معذورين في مخالفة الدليل لقول من بلغتكم أقوالهم مع أنهم ليسوا كل الأمة فنحن في مخالفتهم لقيام الدليل أعذر عند الله ورسوله منكم وهذا كما تراه لا يمكن دفعه إلا بمكابرة أو إجماع متيقن معلوم لا شك فيه وبالله التوفيق.

وقال ابن الزير في "إيثار الحق على الخلق" (١/ ١٣٣): فان قلت هذا صحيح متى ثبت أنه يجوز على العلماء والثقات الخطأ في فهم المعنى أو في التعبير عما فهموا أو فيهما معا فما الدليل على جواز ذلك على العلماء حيث لم يصح إجماعهم؟

قلت: الدليل على ذلك أمور كثيرة أذكر منها ما حضر والله الهادى: منها: اختلاف في الفهم..

الأمر الثاني: مما يدل على جواز الخطأ على أهل العلم في الفهم والتعبير: أنه اشتد اختلاف فطنائهم وأذكيائهم في تعريف الأمور الظاهرة بالحدود الجامعة المانعة وقد تسمى الحقائق فانه قد علم شدة اختلافهم في ذلك وقدح بعضهم على بعض.

والنكتة في ذلك منع ما يؤدي إلى الاختلاف المحرم وتمييز ما يجب قبوله وهو عبارات القرآن والسنة عما لا يجب قبوله على الجميع وهو عبارات من ليس بمعصوم وليس يخالف في حسن هذا الاختيار مميز بعد فهم معناه.

فهذا الكلام انسحب على من التهى عن ترك عبارات الكتاب والسنة وتولى من لم يعصم للتعبير عنهما وما يجر ذلك من الخطأ وتوسيع دائرة الاختلاف المحرم وان ذلك أدى إلى غموض الحق وخفائه وزاد الحق غموضا وخفاء أمران:

أحدهما: خوف العارفين مع قلتهم من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام وما زال الخوف مانعا من إظهار الحق ولا برح المحق عدوا لأكثر الخلق...

وثانيهما: الاعتماد على الكتابة في حفظ العلم فانه أدى إلى كتم أهل العلم لكثير من مصونة في أول الأمر ثم لمهمات الدين في آخره وكان العلم في أول الأمر يبذل من أهله لأهله مشافهة ولو سرا وذلك النقص وهو محفوظ في الصدور غير مبذول لأهل الشرور في السطور فلما قل الحفظ وطال الأمر وكتب ليحفظ وتعذرت الصيانة وخيف العدوان من أعداء أهل الإيمان كتم بعضهم فلم يظهر علمه فازداد النقص واتقي بعضهم فتكلم بالمعاريض الموهمة للباطل خوفا على نفسه ورمز بعضهم فغلط عليه فيما قصده في رمزه فتفاحش الجهل.

كلام العلماء بعضهم في بعض

إذا كان كلام العلماء بعضهم في بعض بهوى وعصبية وجهل فهذا مردود غير مقبول كما قال الذهبي في "السير" (١٠/ ٩٢): كلام الأقران إذا تبرهن أنه بهوى وعصبية لا يلتفت إليه بل يطوي ولا يروى. اهـ

وأما إذا كان الكلام بحق وبيان حال ذلك القرين فهذا مقبول، وما من أحد تكلم فيه إلا وهو قرين لمن تلكم فيه.

قال ابن عباس: استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض. ذكره ابن عبدالبر في"جامع بيان العلم" (٢/ ١٥١)

وقال مالك بن دينار: يؤخذ بمقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض. ذكره ابن عبدالبر في "الجامع" (٢/ ١٥١).

وقال الذهبي في الميزان في ترجمة محمد بن عبدالله بن سليمان الحضرمي: حط من محمد بن عثمان بن أبي شيبة وحط منه عثمان وآل أمرهما إلى القطيعة ولا يعتد بحمد الله بكثير من كلام الأقران بعضهم في بعض.

وقال الذهبي في "السير" (٤/ ٥٥٨) في قصة ما جرى بين مكحول ورجاء بن حيوة: كان ما بينهما فاسداً وما زال الأقران ينال بعضهم من بعض ومكحول ورجاء إمامان فلا يلتفت إلى قول أحد منهما في الآخر.

وقال الذهبي في "السير" (١٠/ ٩٢): كلام الأقران إذا تبرهن أنه بهوى وعصبية لا يلتفت إليه بل يطوي ولا يروى..ثم قد تكلم خلق من التابعين بعضهم في بعض وتحاربوا وجرت أمور لا يمكن شرحها فلا فائدة في بثها ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمر عجيبة، والعاقل خصم نفسه ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ولحوم العلماء مسمومة.

وقال في "الميزان" (١/ ١١١) وكلام الأقران بعضهم في بعض لايعبأ به لا سيما إذا لاح لك إنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد وما ينجو منه إلا من عصمه الله وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين ولو شئت لسردت من ذلك كراريس.

قال ابن عبدالبر في "الجامع" (٢/ ١٥٥): وجلة العلماء عند الغضب كلام هو أكثر من هذا أي ما شجر بين الصحابة ولكن أهل الفهم والعلم لا

يلتفتون إلى ذلك لأنهم بشر يغضبون ويرضون والقول في الرضا غير القول في الغضب.

وقال الذهبي في "السير" (٧/ ٤٠) علم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدور لا عبرة به لا سيما إذا وثق الرجل جماعة يلوح على قولهم الإنصاف.

وقال ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم" (٢/ ١٥٢): إن من صحة عدالته وثبتت في العلم أمانته وبانت ثقته وعنايته بالعلم لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحه ببينة عادلة تصح بها جرحته..اهـ

وقال ابن حبان في "روضة العقلاء" ص(١٣٦): وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران أو من تقارب الشكل لأن الكتبة لا يحسدها إلا الكتبة كما أن الحجبة لا يحسدها إلا الحجبة ولن يبلغ المرء مرتبة من مراتب هذه الدنيا إلا وجد فيها من يبغضها عليها أو يحسدها فيها والحاسد خصم معاند.

وقال الشوكاني في "أدب الطلب" ص(٩١): ومن الأسباب من الإنصاف ما يقع من المنافسة بين المتقاربين بالفضائل أو في الرئاسة الدينية أو الدنيوية فإنه إذا نفخ الشيطان في أنفهما وترقت المنافسة بلغت إلى حد يحمل كل وحد منه ما على أن يرد ما جاء به الآخر إذا تمكن من ذلك إن كان صحيحًا جاريًا على منهج الصواب.

حسن الظن بالعالم السلفي

قال ابن سيرين: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذراً فإن لم تجد فقل: لعل له عذراً. العظمة لأبي الشيخ (٩٧).

وقال أبو قلابة إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك لعل لأخي عذراً لا أعلمه.

قال ابن حجر في "لسان الميزان" في ترجمة ابن جرير الطبري حين تكلم فيه أحمد بن علي السليماني الحافظ خطأ قال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني.

وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما تدعي عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى.

فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير، فلعل السليماني أراد الآتي انتهى.

ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا الآتي لبررت والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا اعتقد انه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل، والله أعلم.

وقال ابن القيم في "إعلام الموقعين" (٣/ ٢٩٥): من له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صدق صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها

معذور بل ومأجور لاجتهاده فلا يجوز أن يتبع فيها ولا يجوز أن تهدر مكانته ومنزلته في قلوب المسلمين.

قال أبو هلال العسكري في "التصحيف" ص(٦): ولا يضع من العالم الذي برع في علمه زلة، إن كان على سبيل السهو والإغفال فإنه لم يعرُ من الخطأ إلا من عصم الله جل ذكره.

وقال الشاطبي في "الموافقات" (٤/ ١٧٠): لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير لا أن يشنع عليه بها ولا ينتقض من أجلها أو يعتقد فيه المخالفة بحت فإنه هذا كله خلاف ما يقتضي رتبته في الدين.

وقال ابن تيمية في "الفتاوى" (٦/ ٣٠٣): وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم وسائر ما به يعرف مرادهم قد يتعسر على بعض الناس ويتعذر على بعضهم.

معاملة خطأ العالم

قال العلامة الألباني في "فقه الواقع" (١/ ٢٨): **كيف نعالج الأخطاء**

وأما الواجب على أي مسلم رأى أمرا أخطأ فيه أحد العلماء أو الدعاة فهو أن يقوم بتذكيره ونصحه، فإن كان الخطأ في مكان محصور، كان التنبيه في ذلك المكان نفسه دون إعلان أو إشهار وبالتي هي أحسن للتي هي أقوم، وإن كان الخطأ معلنا مشهورا فلا بأس من التنبيه والبيان لهذا الخطأ وعلى

طريقة الإعلان ولكن كما قال الله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}[النحل: ١٢].

ومن المهم بيانه أن التخطئة المشار إليها هنا ليست التخطئة المبنية على حماسة الشباب وعواطفهم دونما علم أو بينة لا وإنما المراد التخطئة القائمة على الحجة والبيان والدليل والبرهان، وهذه التخطئة بهذه الصورة اللينة الحكيمة لا تكون إلا بين العلماء المخلصين وطلاب العلم الناصحين الذين هم في علمهم ودعوتهم على كلمة سواء مبنية على الكتاب والسنة وعلى نهج سلف الأمة.

أما إذا كان من يراد تخطئته من المنحرفين عن هذا المنهج الرباني فله حينئذ معاملة خاصة وأسلوب خاص يليق بقدر انحرافه وبعده عن جادة الحق والصواب.

لا يتابع العالم على الخطأ

قال ابن المبارك: رب رجل حسن وآثاره صالحة كانت له هفوة وزلة فلا يقتدى به فيهما قلت الزلة والغلط تارة تقع عن تقصير في الاجتهاد وفاعل ذلك غير مأجور بل مأزور وتارة تقع عن اجتهاد تام لكن وقع فيه الغلط في استحلال محرم أو تحريم حلال أو ترك واجب بتأويل وهو نفس الأمر خطأ فهذا يؤجر على اجتهاده ولا يعاقب على زلته. "فيض القدير" (١/ ١٨٧)

و قال البيهقي في "السنن الكبرى" (٢٠٧٠٧): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب يقول سمعت العباس بن الوليد

يقول سمعت محمد بن شعيب بن شابور يقول سمعت الأوزاعي يقول : من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام.

قال أبوعبدالله: إسناده صحيح.

وقال البيهقي في "الكبرى" (٢٠٧١٠): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال سمعت أبا الوليد يقول سمعت أبا العباس بن سريج يقول سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول : دخلت على المعتضد فدفع إلي كتابا نظرت فيه وكان قد جمع له الرخص من زلل العلماء وما احتج به كل منهم لنفسه فقلت له يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق فقال لم تصح هذه الأحاديث قلت الأحاديث على ما رويت ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة ومن أباح المتعة لم يبح الغناء والمسكر وما من عالم إلا وله زلة ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه فأمر المعتضد فأحرق ذلك الكتاب.

قال أبوعبدالله: إسناده ثقات.

وقال ابن الجوزي في "تلبيس إبليس" (١/ ٢٠٩): وإذ قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم فإن كان ذلك صحيحا عنهم توجه الرد عليهم إذ لا محاباة في الحق وإن لم يصح عنهم حذرنا من مثل هذا القول وذلك المذهب من أي شخص صدر فأما المشبهون بالقوم وليسوا منهم فأغلاطهم كثيرة ونحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تنزيه الشريعة والغيرة عليها من الدخل وما علينا من القائل والفاعل وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم وما زال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه قصدا لبيان

الحق لا لإظهار عيب الغالط ولا اعتبار بقول جاهل يقول كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص وقد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة وله غلطات فلا تمنع منزلته بيان زلله.

وقال ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٠/ ٢٦٦): والعلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة الله وهم إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم} فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم بل جعل طاعة أولى الأمر داخلة في طاعة الرسول وطاعة الرسول طاعة لله وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولى الأمر فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فليس لأحد إذا أمره الرسول بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا بخلاف أولى الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله فليس كل من أطاعهم مطيعا لله بل لابد فيما يأمرون به أن يعلم انه ليس معصية لله وينظر هل أمر الله به أم لا سواء كان أولى الأمر من العلماء أو الأمراء ويدخل فى هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك، وبهذا يكون الدين كله الله قال تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وقال النبى لما قيل له: يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأي ذلك فى سبيل الله، فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله ثم إن كثيرا من الناس يحب خليفة أو عالما أو شيخا أو أميرا فيجعله ندا لله وان كان قد يقول انه يحبه لله فمن جعل غير الرسول تجب طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه وان خالف أمر الله ورسوله فقد جعله ندا وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح

ويدعوه ويستغيث به ويوالى أولياءه ويعادى أعداءه مع إيجابه طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذى يدخل أصحابه فى قوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله. اهـ

وقال ابن القيم في "إعلام الموقعين" (١/ ١٠): والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذ أمروا بمقتضى العلم فطاعتهم تبع لطاعة العلماء فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء وكان الناس كلهم لهم تبعا كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين وفساده بفسادهما كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس قيل من هم قال الملوك والعلماء كما قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

وقال الشاطبي في "الموافقات" (٤/ ٧): إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة ولا الأخذ بها تقليداً له وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع ولذلك عدت زلة وإلا فلو كانت معتداً بها لم يجعل لها هذه المرتبة ولا نسب إلى صاحبها الزلل فيها.

وقال الشاطبي في "الاعتصام" (٢/ ٨٦٢): لا يبع أحد من العلماء إلا من حيث هو متوجه نحو الشريعة قائم بحجتها حاكم بأحكامها جملة وتفصيلاً وأنه متى وجد متوجهاً غير تلك الوجهة في جزئية من الجزئيات أو فرع من الفروع لم يكن حاكماً ولا استقام أن يكون مقتدى به فيما حاد فيه عن صوب الشريعة البتة. اهـ

وقال الشوكاني: في قوله تعالى {أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون}، وفي هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه لأن العلماء ورثة الأنبياء والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسنة العادلين في القضاء هو حكم بحكم الله وحكم رسوله فالداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله وإلى رسوله : أي إلى حكمهما.... وإذا تقرر لديك هذا وفهمته حق فهمه علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره والتقيد بجميع ما جاء به من رواية ورأي وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال في قوله تعالى {أو ينفعونكم أو يضرون}، ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء والأخذ بكل ما يقوله في الدين ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه وأخذوا يعددون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم واقتداء بأقواله وأفعاله وهم قد ملأوا صدورهم هيبة وضاقت أذهانهم عن تصورهم وظنوا أنهم خير أهل الأرض وأعلمهم وأورعهم فلم يسمعوا لناصح نصحا ولا لداع إلى الحق دعاء ولو

فطنوا لوجدوا أنفسهم في غرور عظيم وجهل شنيع وإنهم كالبهيمة العمياء وأولئك الأسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمين كما قال الشاعر :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف أن تورد عليهم حجج الله وتقيم عليهم براهينه فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء فلو أوردت عليه كل حجة وأقمت عليه كل برهان لما أعارك إلا أذنا صماء وعينا عمياء ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن والهداية بيد الخلاق العليم { إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء } ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة.

وقال المعلمي في "رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله" (١٥٢): اعلم أن الله تعالى قد يوقع بعض المخلصين في شيء من الخطأ ابتلاء لغيره أيتبعون الحق ويدعون قوله أم يغترون بفضله وجلالته وهو معذور بل مأجور لاجتهاده وقصد الخير وعدم تقصيره ولكن من اتبعه مفتراً بعظمته بدون الالتفات إلى الحجج الحقيقية من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون معذوراً بل هو على خطر عظيم.

وقال "العيني" في "عمدة القاري" (٣/ ٢٤٠): من الآداب أن العالم إذا رأى من تابعه أمرا يخاف عليه فيه خلاف الصواب سأله عنه وقال له صوابه وبين له حكمه.

مداخل وتلبيس على العلماء

قال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (١/ ١٣٧):

الباب السادس في ذكر تلبيس إبليس على العلماء في فنون العلم

قال المصنف اعلم أن إبليس يدخل على الناس في التلبيس من طرق منها ظاهر الأمر ولكن يغلب الإنسان في إيثار هواه فيغمض على علم يذلله ومنها غامض وهو الذي يخفى على كثير من العلماء ونحن نشير إلى فنون من تلبيسه يستدل بمذكورها على مغفلها إذ حصر الطرق يطول والله العاصم.

ذكر تلبيسه على القراء

فمن ذلك أن أحدهم يشتغل بالقراآت الشاذة وتحصيلها فيفني أكثر عمره في جمعها وتصنيفها والأقراء بها ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات فربما رأيت إمام مسجد يتصدى للأقراء ولا يعرف ما يفسد الصلاة وربما حمله حب التصدر حتى لا يرى بعين الجهل على أن يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه ثم فهمه ثم العمل به ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويطهر أخلاقها ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم.

قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملا، يعني أنهم اقتصروا على التلاوة وتركوا العمل به.

ومن ذلك أن أحدهم يقرأ في محرابه بالشاذ ويترك المتواتر المشهور والصحيح عند العلماء أن الصلاة لا تصح بهذا الشاذ وإنما مقصود هذا إظهار الغريب لاستجلاب مدح الناس وإقبالهم عليه وعنده أنه متشاغل بالقرآن.

ومنهم من يجمع القراآت فيقول ملك مالك ملاك وهذا لا يجوز لأنه إخراج للقرآن عن نظمه.

ومنهم من يجمع السجدات والتهليلات والتكبيرات وذلك مكروه وقد صاروا يوقدون النيران الكثيرة للختمة فيجمعون بين تضييع المال والتشبه بالمجوس والتسبب إلى اجتماع النساء والرجال بالليل للفساد ويريهم إبليس أن في هذا إعزازا للإسلام وهذا تلبيس عظيم لأن إعزاز الشرع باستعمال المشروع ومن ذلك أن منهم من يتسامح بادعاء القراءة على من لم يقرأ عليه وربما كانت له إجازة منه فقال أخبرنا تدليسا وهو يرى أن الأمر في ذلك قريب لكونه يروى القراآت ويراها فعل خير وينسى أن هذا كذب يلزمه إثم الكذابين.

ومن ذلك أن المقرىء المجيد يأخذ على اثنين وثلاثة ويتحدث مع من يدخل عليه والقلب لا يطيق جمع هذه الأشياء ثم يكتب خطه بأنه قد قرأ على فلان بقراءة فلان وقد كان بعض المحققين يقول ينبغي أن يجتمع اثنان أو ثلاثة ويأخذوا على واحد ومن ذلك أن أقواما من القراء يتبارون بكثرة القراءة وقد رأيت من مشايخهم من يجمع الناس ويقيم شخصا ويقرأ في النهار الطويل ثلاث ختمات فإن قصر عيب وإن أتم مدح وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه كما يفعلون في حق السعاة ويريهم إبليس أن في كثرة التلاوة ثوابا وهذا من تلبيسه لأن القراءة ينبغي أن تكون لله تعالى لا للتحسين بها وينبغي أن تكون على تمهل وقال عز وجل {لتقرأه على الناس على مكث} وقال عز وجل {ورتل القرآن ترتيلا}.

ومن ذلك أن جماعة من القراء أحدثوا قراءة الألحان وقد كانت إلى حد قريب، وعلى ذلك فقد كرهها أحمد بن حنبل وغيره ولم يكرهها الشافعي أنبأنا محمد بن ناصر نا أبو علي الحسين بن سعد الهمذاني نا أبو بكر أحمد بن علي ثنا الفضل بن الفضل ثنا السياحي ثنا الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به ولا بأس بقراءة الألحان وتحسين الصوت.

قال المصنف: وقلت إنما أشار الشافعي إلى ما كان في زمانه وكانوا يلحنون بيسرا فأما اليوم فقد صيروا ذلك على قانون الأغاني وكلما قرب ذلك من مشابهة الغناء زادت كراهته.

فان أخرج القرآن عن حد وضعه حرم ذلك ومن ذلك أن قوما من القراء يتسامحون بشيء من الخطايا كالغيبة للنظراء وربما أتوا أكبر من ذلك الذنب واعتقدوا أن حفظ القرآن يرفع عنهم العذاب واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام < لو جعل القرآن في إهاب ما أحترق> وذلك من تلبيس إبليس عليهم لأن عذاب من يعلم أكثر من عذاب من لم يعلم إذ زيادة العلم تقوى الحجة وكون القارىء لم يحترم ما يحفظ ذنب آخر قال الله عز وجل {أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى} وقال في أزواج رسول الله {من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين}.

وقد أخبرنا أحمد بن احمد المتوكلي نا أحمد بن علي بن ثابت نا أبو الحسن ابن زرقويه نا إسماعيل الصفار ثنا زكريا بن يحيى ثنا معروف الكرخي قال: قال بكر بن حبيش: إن في جهنم لواديا تتعوذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم سبع مرات وإن في الوادي لجبا يتعوذ الوادي وجهنم من ذلك الجب كل يوم سبع مرات وإن في الجب لحية يتعوذ الجب والوادي وجهنم من تلك الحية كل يوم سبع مرات يبدأ

بفسقة حملة القرآن فيقولون أي رب يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان فقيل لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم.

قال المصنف فلنقتصر على هذا الأنموذج فيما يتعلق بالقراء.

ذكر تلبيس إبليس على أصحاب الحديث

من ذلك أن قوما استغرقوا أعمارهم في سماع الحديث والرحلة فيه وجمع الطرق الكثيرة وطلب الأسانيد العالية والمتون الغريبة وهؤلاء على قسمين قسم قصدوا حفظ الشرع بمعرفة صحيح الحديث من سقيمه وهم مشكورون على هذا القصد إلا أن إبليس يلبس عليهم بأن يشغلهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة ما يجب عليهم والاجتهاد في أداء اللازم والتفقه في الحديث، فإن قال قائل: فقد فعل هذا خلق كثير من السلف، كيحيى بن معين، وابن المديني، والبخاري، ومسلم؟

فالجواب: أن أولئك جمعوا بين معرفة المهم من أمور الدين والفقه فيه وبين ما طلبوا من الحديث وأعانهم على ذلك قصر الإسناد وقلة الحديث فاتسع زمانهم للأمرين.

فأما في هذا الزمان فإن طرق الحديث طالت والتصانيف فيه اتسعت وما في هذا الكتاب في تلك الكتب وإنما الطرق تختلف فقل أن يمكن أحدا أن يجمع بين الأمرين فترى المحدث يكتب ويسمع خمسين سنة ويجمع الكتب ولا يدري ما فيها ولو وقعت له حادثة في صلاته لافتقر إلى بعض أحداث المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه، وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين فقالوا زوامل أسفار لا يدرون ما معهم، فان أفلح أحدهم ونظر في حديثه فربما عمل بحديث منسوخ وربما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل وعمل بذلك وليس بالمراد من الحديث كما روينا أن بعض المحدثين روي عن رسول الله أنه نهى أن يسقى الرجل

ماءه زرع غيره فقال جماعة ممن حضر قد كنا إذا فضل عنا ماء في بساتيننا سرحناه إلى جيراننا ونحن نستغفر الله!

فما فهم القارىء ولا السامع ولا شعروا أن المراد وطء الحبالى من السبايا.

قال الخطابي: وكان بعض مشايخنا يروي الحديث أن النبي نهى عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة بإسكان اللام، قال: وأخبرني أنه بقي أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة، قال: فقلت له: إنما هو الحلق جمع حلقة وإنما كره الاجتماع قبل الصلاة للعلم والمذاكرة وأمر أن يشتغل بالصلاة وينصت للخطبة، فقال: قد فرجت علي وكان من الصالحين!

وقد كان ابن صاعد كبير القدر في المحدثين لكنه لما قلت مخالطته للفقهاء كان لا يفهم جواب فتوى حتى أنه قد أخبرنا أبو منصور البزار نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت قال سمعت اليرقاني يقول: قال أبو بكر الأبهري الفقيه قال كنت عند يحيى بن محمد بن صاعد فجاءته امرأة فقالت أيها الشيخ ما تقول في بئر سقطت فيه دجاجة فماتت فهل الماء طاهر أو نجس فقال يحيى ويحك كيف سقطت الدجاجة إلى البئر قالت لم تكن البئر مغطاة فقال يحيى ألا غطيتها حتى لا يقع فيها شيء! قال الأبهري: فقلت يا هذه، إن كان الماء تغير فهو نجس وإلا فهو طاهر.

قال المصنف: وكان ابن شاهين قد صنف في الحديث مصنفات كثيرة أقلها جزء وأكثرها التفسير وهو ألف جزء وما كان يعرف من الفقه شيئا، وقد كان فيهم من يقدم على الفتوى بالخطأ لئلا يرى بعين الجهل فكان فيهم من يصير بما يفتي به ضحكة، فسئل بعضهم عن مسألة من الفرائض فكتب في الفتوى تقسم على فرائض الله سبحانه وتعالى.

وأنبأنا محمد بن أبي منصور نا أحمد بن الحسين بن حبرون نا أحمد بن محمد العتيقي نا أبو عمر بن حياة نا سليمان بن إسحاق الحلاب ثنا إبراهيم الحربي قال بلغني أن امرأة جاءت إلى علي بن داود وهو يحدث وبين يديه مقدار ألف نفس، فقالت له: حلفت بصدقة إزاري، فقال لها: بكم اشتريتيه؟ قالت: باثنين وعشرين درهما، قال اذهبي فصومي اثنين وعشرين يوما، فلما مرت جعل يقول آه آه غلطنا والله أمرناها بكفارة الظهار.

قال المصنف قلت: فانظروا إلى هاتين الفضيحتين فضيحة الجهل وفضيحة الإقدام على الفتوى بمثل هذا التخليط.

وقد رأينا في زماننا من يجمع الكتب منهم ويكثر السماع ولا يفهم ما حصل، ومنهم من لا يحفظ القرآن ولا يعرف أركان الصلاة فتشاغل هؤلاء على زعمهم بفروض الكفاية عن فروض الأعيان وإيثار ما ليس بمهم على المهم من تلبيس إبليس.

القسم الثاني: قوم أكثروا سماع الحديث ولم يكن مقصودهم صحيحا ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق وإنما كان مرادهم العوالي والغرائب فطافوا البلدان ليقول أحدهم لقيت فلانا ولي من الأسانيد ما ليس لغيري وعندي أحاديث ليست عند غيري.

وقد كان دخل إلينا إلى بغداد بعض طلبة الحديث وكان يأخذ الشيخ فيقعده في الزقة وهي البستان الذي على شاطيء دجلة فيقرأ عليه ويقول في مجموعاته حدثني فلان وفلان بالزقة ويوهم الناس أنها البلدة التي بناحية الشام ليظنوا أنه قد تعب في الأسفار لطلب الحديث، وكان يقعد الشيخ بين نهر عيسى والفرات ويقول: حدثني فلان من وراء النهر يوهم أنه قد عبر خراسان في طلب الحديث، وكان

يقول: حدثني فلان في رحلتي الثانية والثالثة ليعلم الناس قدر تعبه في طلب الحديث فما بورك له ومات في زمان الطلب.

قال المصنف: وهذا كله من الإخلاص بمعزل وإنما مقصودهم الرساة والمباهاة ولذلك يتبعون شاذ الحديث وغريبه وربما ظفر أحدهم بجزء فيه سماع أخيه المسلم فأخفاه ليتفرد هو بالرواية وقد يموت هو ولا يرويه فيفوت الشخصين.

وربما رحل أحدهم إلى شيخ أول اسمه قاف أو كاف ليكتب ذلك في مشيخته فحسب.

ومن تلبيس إبليس على أصحاب الحديث قدح بعضهم في بعض طلبا للتشفي ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذب عن الشرع والله أعلم بالمقاصد ودليل مقصد خبث هؤلاء سكوتهم عمن أخذوا عنه وما كان القدماء هكذا فقد كان علي بن المديني يحدث عن أبيه وكان ضعيفا ثم يقول وفي حديث الشيخ ما فيه.

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامري نا أبو سعيد بن أبي صادق نا أبو عبد الله بن باكويه ثنا بكر أن ابن أحمد الجيلي قال سمعت يوسف بن الحسين يقول: سألت حارثا المحاسبي عن الغيبة؟ فقال: احذرها فانها شر مكتسب وما ظنك بشيء يسلبك حسناتك فيرضى به خصماءك ومن تبغضه في الدنيا كيف ترضى به خصمك يوم القيامة يأخذ من حسناتك أو تأخذ من سيئاته إذ ليس هناك درهم ولا دينار فاحذرها وتعرف منبعها فان منبع غيبة الهمج والجهال من اشفاء الغيظ والحمية والحسد وسوء الظن وتلك مكشوفة غير خفية.

وأما غيبة العلماء فمنبعها من خدعة النفس على إبداء النصيحة وتأويل مالا يصح من الخبر ولو صح ما كان عونا على الغيبة وهو قوله أترغبون عن ذكره

اذكروه بما فيه ليحذره الناس ولو كان الخبر محفوظا صحيحا لم يكن فيه إبداء شناعة على أخيك المسلم من غير أن تسأل عنه وإنما إذا جاءك مسترشد فقال أريد أن أزوج كريمتي من فلان فعرفت منه بدعة أو أنه غير مأمون على حرم المسلمين صرفته عنه بأحسن صرف أو يجيئك رجل آخر فيقول لك أريد أن أودع مالي فلانا وليس ذلك الرجل موضعا للأمانة فتصرفه عنه بأحسن الوجوه أو يقول لك رجل أريد أن أصلي خلف فلان أو أجعله إمامي في علم فتصرفه عنه بأحسن الوجوه ولا تشف غيظك من غيبته.

وأما منبع الغيبة من القراء والنساك فمن طريق التعجب يبدي عوار الأخ ثم يتصنع بالدعاء في ظهر الغيب فيتمكن من لحم أخيه المسلم ثم يتزين بالدعاء له.

وأما منبع الغيبة من الرؤساء والأساتذة فمن طريق إبداء الرحمة والشفقة حتى يقول مسكين فلان ابتلى بكذا وامتحن بكذا نعوذ بالله من الخذلان فيتصنع بإبداء الرحمة والشفقة على أخيه ثم يتصنع بالدعاء له عند إخوانه ويقول إنما أبديت لكم ذاك لتكثروا دعاءكم له ونعوذ بالله من الغيبة تعريضا أو تصريحا فاتق الغيبة فقد نطق القرآن بكراهتها فقال عز وجل {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه} وقد روي عن النبي في ذلك أخبار كثيرة.

ومن تلبيس إبليس على علماء المحدثين رواية الحديث الموضوع من غير أن يبينوا أنه موضوع وهذه جناية منهم على الشرع ومقصودهم ترويج أحاديثهم وكثرة رواياتهم وقد قال <من روى عني حديثا يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين>.

ومن هذا الفن تدليسهم في الرواية فتارة يقول أحدهم فلان عن فلان أو قال فلان عن فلان يوهم أنه سمع منه المنقطع ولم يسمع وهذا قبيح لأنه يجعل المنقطع

في مرتبة المتصل، ومنهم من يروي عن الضعيف والكذاب فينفي اسمه فربما سماه بغير اسمه وربما كناه وربما نسبه إلى جده لئلا يعرف وهذه جناية على الشرع؛ لأنه يثبت حكما بما لا يثبت به فأما إذا كان المروي عنه ثقة فنسبه إلى جده أو أقتصر على كنيته لئلا يرى أنه قد ردد الرواية عنه أو يكون المروي عنه في مرتبة الراوي فيستحي الراوي من ذكره فهذا على الكراهة والبعد من الصواب قريب بشرط أن يكون المروي عنه ثقة والله الموفق.

ذكر تلبيس إبليس على الفقهاء

قال المصنف كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث كسنن أبي داود ونحوها ثم استهانوا بهذا الأمر أيضا وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح ولا يعلم لقلة التفاته إلى معرفة النقل وإنما الفقه استخراج من الكتاب والسنة فكيف يستخرج من شيء لا يعرفه ومن القبيح تعليق حكم على حديث لا يدري أصحيح هو أم لا ولقد كانت معرفة هذا تصعب ويحتاج الإنسان إلى السفر الطويل والتعب الكثير حتى تعرف ذلك فصنفت الكتب وتقررت السنن وعرف الصحيح من السقيم ولكن غلب على المتأخرين الكسل بالمرة عن أن يطالعوا علم الحديث حتى إني رأيت بعض الأكابر من الفقهاء يقول في تصنيفه عن ألفاظ في الصحاح لا يجوز أن يكون رسول الله قال هذا ورأيته يحتج في مسألة فيقول دليلنا ما روى بعضهم أن رسول الله قال

كذا ويجعل الجواب عن حديث صحيح قد احتج به خصمه أن يقول هذا الحديث لا يعرف وهذا كله جناية على الإسلام.

ومن تلبيس إبليس على الفقهاء أن جل اعتمادهم على تحصيل علم الجدل يطلبون بزعمهم تصحيح الدليل على الحكم والاستنباط لدقائق الشرع وعلل المذاهب ولو صحت هذه الدعوى منهم لتشاغلوا بجميع المسائل وإنما يتشاغلون بالمسائل الكبار ليتسع فيها الكلام فيتقدم المناظر بذلك عند الناس في خصام النظر فهم أحدهم بترتيب المجادلة والتفتيش على المناقضات طلبا للمفاخرات والمباهاة وربما لم يعرف الحكم في مسألة صغيرة تعم بها البلوى.

ذكر تلبيسه عليهم بإدخالهم في الجدل كلام الفلاسفة واعتمادهم على تلك الأوضاع.

ومن ذلك إيثارهم للقياس على الحديث المستدل به في المسألة ليتسع لهم المجال في النظر وان استدل أحد منهم بالحديث هجن ومن الأدب تقديم الإستدلال بالحديث ومن ذلك أنهم جعلوا النظر جل اشتغالهم ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن وسماع الحديث وسيرة الرسول وأصحابه ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير وهي محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة.

ومسائل الخلاف وإن كانت من علم الشرع إلا أنها لا تنهض بكل المطلوب، ومن لم يطلع على أسرار سير السلف وحال الذي تمذهب له لم يمكنهم سلوك طريقهم وينبغي أن يعلم أن الطبع لص فإذا ترك مع أهل هذا الزمان سرق من طبائعهم فصار مثلهم فإذا نظر في سير القدماء زاحمهم وتأدب بأخلاقهم وقد كان

بعض السلف يقول حديث يرق له قلبي أحب إلي من مائة قضية من قضايا شريح، وإنما قال هذا؛ لأن رقة القلب مقصودة ولها أسباب ومن ذلك أنهم اقتصروا على المناظرة وأعرضوا عن حفظ المذهب وباقي علوم الشرع فترى الفقيه المفتي يسأل عن آية أو حديث فلا يدري وهذا عيب فأين الأنفة من التقصير ومن ذلك أن المجادلة إنما وضعت ليستبين الصواب وقد كان مقصود السلف المناصحة بإظهار الحق وقد كانوا ينتقلون من دليل إلى دليل وإذا خفي على أحدهم شيء نبهه الآخر لأن المقصود كان إظهار الحق فصار هؤلاء إذا قاس الفقيه على أصل بعلة يظنها فقيل له ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة فقال هذا الذي يظهر لي فان ظهر لكم ما هو أولى من ذلك فاذكروه فان المعترض لا يلزمني ذكر ذلك وقد صدق في أنه لا يلزمه ولكن فيما ابتدع من الجدل بل في باب النصح وإظهار الحق يلزمه ومن ذلك أن أحدهم يتبين له الصواب مع خصمه ولا يرجع ويضيق صدره كيف ظهر الحق مع خصمه وربما اجتهد في رده مع علمه أنه الحق وهذا من أقبح القبيح لأن المناظرة إنما وضعت لبيان الحق وقد قال الشافعي رحمه الله ما ناظرت أحدا فأنكر الحجة إلا سقط من عيني ولا قبلها إلا هبته وما ناظرت أحدا فباليت مع من كانت الحجة إن كانت معه صرت إليه ومن ذلك أن طلبهم للرياسة بالمناظرة تثير الكامن في النفس من حب الرياسة فإذا رأى أحدهم في كلامه ضعفا يوجب قهر خصمه له خرج إلى المكابرة فإن رأى خصمه استطال عليه بلفظ أخذته حمية الكبر فقابل ذلك بالسب فصارت المجادلة مخاذلة ومن ذلك ترخصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة فيقول أحدهم تكلمت مع فلان فما قال شيئا ويتكلم بما يوجب التشفي من غرض خصمه بتلك الحجة ومن ذلك أن إبليس لبس عليهم بأن الفقه وحده علم الشرع ليس ثم غيره فان ذكر لهم محدث قالوا ذاك

لا يفهم شيئا وينسون أن الحديث هو الأصل فان ذكر لهم كلام يلين به القلب قالوا هذا كلام الوعاظ ومن ذلك إقدامهم على الفتوى وما بلغوا مرتبتها وربما أفتوا بواقعاتهم المخالفة للنصوص ولو توقفوا في المشكلات كان أولى.

فقد أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي نا محمد بن هبة الله الطبري ثنا محمد بن الحسين بن الفضل نا عبد الله بن جعفر بن درستويه ثنا يعقوب بن سفيان ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول.

قال يعقوب وثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عطاء بن السائب قال سمعت عبد الرحمن بن أبي ليلى أيضا يقول أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ما منهم من يحدث حديثا إلا ود أن أخاه كفاه الحديث ولا يسأل عن فتيا إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا.

قال المصنف: وقد روينا عن إبراهيم النخعي أن رجلا سأله عن مسألة، فقال ما وجدت من تسأله غيري.

وعن مالك بن أنس رضي الله عنه قال: ما أفتيت حتى سألت سبعين شيخا هل ترون لي أن أفتي فقالوا نعم فقيل له فلو نهوك قال لو نهوني انتهيت.

وقال رجل لأحمد بن حنبل إني حلفت ولا أدري كيف حلفت؟ قال: ليتك إذ دريت كيف حلفت دريت أنا كيف أفتيك.

قال المصنف: وإنما كانت هذه سجية السلف لخشيتهم الله عز وجل وخوفهم منه ومن نظر في سيرتهم تأدب.

ومن تلبيس إبليس على الفقهاء مخالطتهم الأمراء والسلاطين ومداهنتهم وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه لينالوا من دنياهم عرضا فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير يقول لولا أني على صواب لأنكر على الفقيه، وكيف لا أكون مصيبا وهو يأكل من مالي.

والثاني: العامي أنه يقول لا بأس بهذا الأمير، ولا بماله ولا بأفعاله فان فلانا الفقيه لا يبرح عنده.

والثالث: الفقيه فإنه يفسد دينه بذلك.

وقد لبس إبليس عليهم في الدخول على السلطان فيقول إنما ندخل لنشفع في مسلم وينكشف هذا التلبيس بأنه لو دخل غيره يشفع لما أعجبه ذلك وربما قدح في ذلك الشخص لتفرده بالسلطان.

ومن تلبيس إبليس عليه في أخذ أموالهم فيقول لك فيها حق ومعلوم أنها إن كانت من حرام لم يحل له منها شيء وان كانت من شبهة فتركها أولى وان كانت من مباح جاز له الأخذ بمقدار مكانه من الدين لا على وجه اتفاقه في إقامة الرعونة وربما اقتدى العوام بظاهر فعله واستباحوا مالا يستباح.

وقد لبس إبليس على قوم من العلماء ينقطعون على السلطان إقبالا على التعبد والدين فيزين لهم غيبة من يدخل على السلطان من العلماء فيجمع لهم آفتين غيبة الناس ومدح النفس.

وفي الجملة فالدخول على السلاطين خطر عظيم لأن النية قد تحسن في أول الدخول ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإنكار عليهم.

وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول ما أخاف من إهانتهم لي إنما أخاف من إكرامهم، فيميل قلبي إليهم.

وقد كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جورهم فتطلبهم الأمراء لحاجتهم إليهم في الفتاوى والولايات.

فنشأ أقوام قويت رغبتهم في الدنيا فتعلموا العلوم التي تصلح للأمراء وحملوها إليهم لينالوا من دنياهم ويدلك على أنهم قصدوا بالعلوم أن الأمراء كانوا قديما يميلون إلى سماع الحجج في الأصول فأظهر الناس علم الكلام ثم مال بعض الأمراء إلى المناظرة في الفقه فمال الناس إلى الجدل ثم بعض الأمراء إلى المواعظ فمال خلق كثير من المتعلمين إليها ولما كان جمهور العوام يميلون إلى القصص كثر القصاص وقل الفقهاء.

ومن تلبيس إبليس على الفقهاء أن أحدهم يأكل من وقف المدرسة المبنية على المتشاغلين بالعلم فيمكث فيها سنين ولا يتشاغل ويقنع بما عرف أو ينتهي في العلم فلا يبقى له في الوقف حظ لأنه إنما جعل لمن يتعلم إلا أن يكون ذلك الشخص معيدا أو مدرسا فان شغله دائم ومن ذلك ما يحكى عن بعض الأحداث المتفقهة من الانبساط في المنهيات فبعضهم يلبس الحرير ويتحلى بالذهب ويحال على المكث فيأخذه إلى غير ذلك من المعاصي وسبب إنبساط هؤلاء مختلف فمنهم من يكون فاسد العقيدة في أصل الدين وهو يتفقه ليستر نفسه أو ليأخذ من الوقف أو ليرأس أو ليناظر، ومنهم من عقيدته صحيحة لكن يغلبه الهوى وحب الشهوات وليس عنده صارف عن ذلك؛ لأن نفس الجدل والمناظرة تحرك الكبر والعجب وإنما يتقوم الإنسان بالرياضة ومطالعة سير السلف وأكثر القوم في بعد عن هذا وليس عندهم إلا ما يعين الطبع على شموخه فحينئذ يسرح الهوى بلا زاد.

ومنهم من يلبس عليه إبليس بأنه عالم وفقيه ومفت والعلم يدفع عن أربابه وهيهات فان العلم أولى أن يحاجه ويضاعف عذابه كما ذكرنا في حق القراء.

وقد قال الحسن البصري: إنما الفقيه من يخشى الله عز وجل.

قال ابن عقيل: رأيت فقيها خراسانيا عليه حرير وخواتم ذهب، فقلت له: ما هذا فقال: خلع السلطان وكمد الأعداء، فقلت له: بل هو شماتة الأعداء بك إن كنت مسلما، إن إبليس عدوك وإذا بلغ منك مبلغك البسك ما يسخط الشرع فقد أشمته بنفسك، وهل خلع السلطان سائغة لنهي الرحمن يا مسكين! خلع عليك السلطان فانخلعت به من الإيمان وقد كان ينبغي أن يخلع بك السلطان لباس الفسق ويلبسك لباس التقوى رماكم الله بخزيه حيث هونتم أمره، هكذا ليتك. قلت: هذه رعونات الطبع الآن تمت محنتك لأن عدوانك دليل على فساد باطنك.

ومن تلبيسه عليهم أن يحسن لهم ازدراء الوعاظ ويمنعهم من الحضور عندهم فيقولون من هؤلاء قصاص ومراد الشيطان أن لا يحضروا في موضع يلين فيه القلب ويخشع والقصاص لا يذمون من حيث هذا الاسم لأن الله عز وجل قال {نحن نقص عليك أحسن القصص} وقال {فاقصص القصص} وإنما ذم القصاص؛ لأن الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم غالبهم يخلط فيما يورده، وربما اعتمد على ما أكثره محال، فأما إذا كان القصص صدقا ويوجب وعظا فهو ممدوح وقد كان أحمد بن حنبل يقول ما أحوج الناس إلى قاص صدوق.

ذكر تلبيسه على الوعاظ والقصاص

قال المصنف كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور وعندهم المميزون من الناس وتعلق بهم العوام والنساء فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع في هذا الفن.

وقد ذكرنا آفاتهم في كتاب القصاص المذكرين إلا أنا نذكر هنا جملة فمن ذلك أن قوما منهم كانوا يضعون أحاديث الترغيب والترهيب ولبس عليهم إبليس بأننا نقصد حث الناس على الخير وكفهم عن الشر، وهذا افتأت منهم على الشريعة لأنها عندهم على هذا الفعل ناقصة تحتاج إلى تتمة ثم نسوا قوله {من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار} ومن ذلك أنهم تلمحوا ما يزعج النفوس ويطرب القلوب فنوعوا فيه الكلام فتراهم ينشدون الأشعار الرائقة الغزلية في العشق.

ولبس عليهم إبليس بأننا نقصد الإثارة إلى محبة الله عز وجل ومعلوم أن عامة من يحضرهم العوام الذين بواطنهم مشحونة بحب الهوى فيضل القاص ويضل ومن ذلك من يظهر من التواجد والتخاشع زيادة على ما في قلبه وكثرة الجمع توجب زيادة تعمل فتسمح النفس بفضل بكاء وخشوع فمن كان منهم كاذبا فقد خسر الآخرة ومن كان صادقا لم يسلم صدقه من رياء يخالطه ومنهم من يتحرك الحركات التي يوقع بها على قراءة الألحان والألحان التي قد أخرجوها اليوم مشابهة للغناء فهي إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهة والقارىء يطرب والقاص ينشد الغزل مع تصفيق بيديه وإيقاع برجليه فتشبه السكر ويوجب ذلك تحريك الطباع وتهييج النفوس وصياح الرجال والنساء وتمزيق الثياب لما في النفوس من دفائن

الهوى ثم يخرجون فيقولون كان المجلس طيبا ويشيرون بالطيبة إلى ما لا يجوز.

ومنهم من يجري في مثل تلك الحالة التي شرحناها لكنه ينشد أشعار النوح على الموتى ويصف ما يجري لهم من البلاء ويذكر الغربة ومن مات غريبا فيبكي بها النساء ويصير المكان كالمأتم وإنما ينبغي أن يذكر الصبر على فقد الأحباب لا ما يوجب الجزع ومنهم من يتكلم في دقائق الزهد ومحبة الحق سبحانه فليس عليه إبليس إنك من جملة الموصوفين بذلك لأنك لم تقدر على الوصف حتى عرفت ما تصف وسلكت الطريق وكشف هذا التلبيس أن الوصف علم والسلوك غير العلم ومنهم من يتكلم بالطامات والشطح الخارج عن الشرع ويستشهد بأشعار العشق وغرضه أن يكثر في مجلسه الصياح ولو على كلام فاسد وكم منهم من يزوق عبارة لا معنى تحتها وأكثر كلامهم اليوم في موسى والجبل وزليخا ويوسف ولا يكادون يذكرون الفرائض ولا ينهون عن ذنب فمتى يرجع صاحب الزنا ومستعمل الربا وتعرف المرأة حق زوجها وتحفظ صلاتها هيهات هؤلاء تركوا الشرع وراء ظهورهم ولهذا نفقت سلعهم لأن الحق ثقيل والباطل خفيف ومنهم من يحث على الزهد وقيام الليل ولا يبين للعامة المقصود فربما تاب الرجل منهم وانقطع إلى زاوية أو خرج إلى جبل فبقيت عائلته لا شيء لهم ومنهم من يتكلم في الرجاء والطمع من غير أن يمزج ذلك بما يوجب الخوف والحذر فيزيد الناس جرأة على المعاصي ثم يقوي ما ذكر بميله إلى الدنيا من المراكب الفاهرة والملابس الفاخرة فيفسد القلوب بقوله وفعله.

فصل وقد يكون الواعظ صادقا قاصدا للنصيحة إلا أن منهم من شرب الرئاسة في قلبه مع الزمان فيجب أن يعظم، وعلامته أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه على الخلق كره ذلك ولو صح قصده لم يكره أن يعينه على خلائق الخلق.

فصل ومن القصاص من يخلط في مجلسه الرجال والنساء وترى النساء يكثرن الصياح وجدا على زعمهن فلا ينكر ذلك عليهن جمعا للقلوب عليه ولقد ظهر في زماننا هذا من القصاص ما لا يدخل في التلبيس لأنه أمر صريح من كونهم جعلوا القصص معاشا يستمحنون به الأمراء والظلمة والآخذ من أصحاب المكوس والتكسب به في البلدان وفيهم من يحضر المقابر فيذكر البلى وفراق الأحبة فيبكي النسوة ولا يحث على الصبر.

وقد يلبس إبليس على الواعظ المحقق فيقول له مثلك لا يعظ وإنما يعظ متيقظ فيحمله على السكوت والانقطاع وذلك من دسائس إبليس لأنه يمنع فعل الخير ويقول إنك تلتذ بما تورده وتجد بذلك سد باب الخير.

وعن ثابت قال: كان الحسن في مجلس فقيل للعلاء تكلم، فقال: أو هناك أنا، ثم ذكر الكلام ومؤنته وتبعته، قال ثابت: فأعجبني، قال: ثم تكلم الحسن وإننا هناك يود الشيطان أنكم أخذتموها عنه فلم يأمر أحدا بخير ولم ينهه عن شر.

ذكر تلبيسه على أهل اللغة والأدب

قال المصنف قد لبس على جمهورهم فشغلهم بعلوم النحو واللغة من المهمات اللازمة التي هي فرض عين عن معرفة ما يلزمهم عرفانه من العبادات وما هو أولى بهم من آداب النفوس وصلاح القلوب وبما هو أفضل من علوم التفسير والحديث والفقه فأذهبوا الزمان كله في علوم لا تراد لنفسها بل لغيرها فإن الإنسان إذا فهم الكلمة فينبغي أن يترقى إلى العمل بها إذ هي مرادة لغيرها فترى الإنسان منهم لا يكاد يعرف من آداب الشريعة إلا القليل ولا من الفقه ولا يلتفت إلى تزكيه نفسه وصلاح قلبه ومع هذا ففيهم كبر عظيم وقد خيل لهم إبليس أنكم علماء الإسلام

لأن النحو واللغة من علوم الإسلام وبها يعرف معنى القرآن العزيز ولعمري أن هذا لا ينكر ولكن معرفة ما يلزم من النحو لإصلاح اللسان وما يحتاج إليه من اللغة في تفسير القرآن والحديث أمر قريب وهو أمر لازم وما عدا ذلك فضل لا يحتاج إليه وإنفاق الزمان في تحصيل هذا الفاضل وليس بمهم مع ترك المهم غلط وإيثاره على ما هو أنفع وأعلى رتبة كالفقه والحديث غبن ولو اتسع العمر لمعرفة الكل كان حسنا ولكن العمر قصير فينبغي إيثار الأهم والأفضل.

فصل ومما ظنوه صوابا وهو خطأ ما أخبرنا به أبو الحسين بن فارس

قال قيل لفقيه العرب هل يجب على الرجل إذا أشهد الوضوء قال نعم قال والإشهاد أن يمذي الرجل.

قال المصنف: وذكر من هذا الجنس مسائل كثيرة وهذا غاية في الخطأ لأنه متى كان الاسم مشتركا بين مسميين كان إطلاق الفتوى على أحدهما دون الآخر خطأ، مثاله: أن يقول المستفتي ما تقول في وطء الرجل زوجته في قرءها؟ فإن القرء يقع عند اللغويين على الأطهار، وعلى الحيض، فيقول الفقيه: يجوز إشارة إلى الطهر أو لا يجوز إشارة إلى الحيض خطأ، وكذلك لو قال السائل هل يجوز للصائم أن يأكل بعد طلوع الفجر لم يجز إطلاق الجواب فما ذكره فقيه العرب هو خطأ من وجهين أحدهما: أنه لم يستفصل في المحتملات، والثاني: أنه صرف الفتوى إلى أبعد المحتملات وترك الأظهر، وقد استحسنوا هذا وقلة الفقه أوجبت هذا الزلل.

فصل ولما كان عموم اشتغالهم بأشعار الجاهلية ولم يجد الطبع صادا

عما وضع عليه من مطالعة الأحاديث ومعرفة سير السلف الصالح سالت بهم الطباع إلى هوة الهوى فانبث شرع البطالة يعبث فقل أن ترى منهم متشاغلا بالتقوى أو ناظرا في مطعم فان النحو يغلب طلبه على السلاطين فيأكل النحاة من

أموالهم الحرام كما كان أبو علي الفارسي في ظل عضد الدولة وغيره وقد يظنون جواز الشيء وهو غير جائز لقلة فقههم كما جرى للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري، قال: كنت أؤدب القاسم بن عبد الله، فأقول له: إن بلغت إلى مبلغ أبيك ووليت الوزارة ماذا تصنع بي؟ فيقول: ما أحببت، فأقول له: أن تعطيني عشرين ألف دينار، وكانت غاية أمنيتي فما مضت إلا سنون حتى ولى القاسم الوزارة، وأنا على ملازمتي له، وقد صرت نديمه فدعتني نفسي إلى اذكاره بالوعد ثم هبته، فلما كان في اليوم الثالث من وزارته، قال لي: يا أبا إسحاق لم أرك أذكرتني بالنذر، فقلت: عولت على رعاية الوزير أيده الله، وأنه لا يحتاج إلى إذكار لنذر عليه في أمر خادم واجب الحق، فقال لي: إنه المعتضد ولولاه ما تعاظمني دفع ذلك إليك في مكان واحد، ولكن أخاف أن يصير لي معه حديث فاسمع بأخذه متفرقا، فقلت: إفعل، فقال: إجلس للناس وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار، واستعجل عليها، ولا تمتنع من مسائلتي شيئا تخاطب فيه صحيحا كان أو محالا إلى أن يحصل لك مال النذر، ففعلت ذلك، وكنت أعرض عليه كل يوم رقاعا فيوقع فيها، وربما قال لي كم ضمن لك على هذا، فأقول كذا وكذا، فيقول: غبنت هذا يساوي كذا وكذا، فاستزد فأراجع القوم ولا أزال أماكسهم ويزيدونني حتى أبلغ الحد الذي رسمه، قال: فعرضت عليه شيئا عظيما فحصل عندي عشرون ألف دينار وأكثر منها في مدة مديدة فقال لي بعد شهور يا أبا إسحاق: حصل مال النذر، فقلت: لا فسكت وكنت أعرض ثم يسألني في كل شهر أو نحوه هل حصل المال فأقول: لا خوفا من انقطاع الكسب إلى أن حصل عندي ضعف المال وسألني يوما فاستحييت من الكذب المتصل، فقلت: قد حصل ذلك بسعادة الوزير.

فقال: فرجت والله عني فقد كنت مشغول القلب إلى أن يحصل لك، قال: ثم أخذ الدواة ووقع لي إلى خازنه بثلاثة آلاف دينار صله فأخذتها، وامتنعت أن أعرض عليه شيئا ولم أدر كيف أقع منه فلما كان من الغد جئته وجلست على رسمي فأومأ إلي هات ما معك ليستدعى مني الرقاع على الرسم فقلت ما أخذت من أحد رقعة لأن النذر قد وقع الوفاء به، ولم ادر كيف أقع من الوزير، فقال: يا سبحان الله أتراني كنت أقطع عنك شيئا قد صار لك عادة، وعلم به الناس وصارت لك به منزلة عندهم وجاه وغدو ورواح إلى بابك ولا يعلم سبب انقطاعه فيظن ذلك لضعف جاهك عندي أو تغير رتبتك أعرض علي رسمك وخذ بلا حساب فقبلت يده وباكرته من غد بالرقاع وكنت أعرض عليه كل يوم شيئا إلى أن مات وقد تأثلت مالي هذا.

قال المصنف: انظروا ما يصنع قلة الفقه فإن هذا الرجل الكبير القدر في معرفته النحو واللغة لو علم أن هذا الذي جرى له لم يجز شرعا ما حكاه وتبجح به فإن إيصال الظلامات واجب ولا يجوز أخذ البرطيل عليها ولا على شيء مما نصب الوزير له من أمور الدولة وبهذا تبين مرتبة الفقه على غيره.

ذكر تلبيس إبليس على الكاملين من العلماء

قال المصنف إن أقواما علت هممهم فحصلوا علوم الشرع من القرآن والحديث والفقه والأدب وغير ذلك فأتاهم إبليس يخفي التلبيس فأراهم أنفسهم بعين عظيمة لما نالوا وأفادوا غيرهم فمنهم من يستفزه لطول عنائه في الطلب فحسن له اللذات وقال له إلى متى هذا التعب فأرح جوارحك من كلف التكاليف وافسح لنفسك من مشتهاها فإن وقعت في زلة فالعلم يدفع عنك العقوبة وأورد

عليه فضل العلماء فان خذل هذا العبد وقبل هذا التلبيس يهلك وان وفق فينبغي له أن يقول جوابك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه إنما فضل العلماء بالعمل ولولا العمل به ما كان له معنى، وإذا لم أعمل به كنت كمن لم يفهم المقصود به ويصير مثلي كمثل رجل جمع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل فلم ينفعه ذلك من جوعه.

والثاني: أن يعارضه بما ورد في ذم من لم يعمل بالعلم لقوله: <أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه> وحكايته عن رجل يلقي في النار فتندلق أقتابه فيقول كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه، وقول أبي الدرداء رضي الله عنه: ويل لمن يعلم مرة وويل لم علم ولم يعمل سبع مرات.

والثالث: أن يذكر له عقاب من هلك من العلماء التاركين للعمل بالعلم كابليس وبلعام ويكفي في ذم العالم إذا لم يعمل قوله تعالى {كمثل الحمار يحمل أسفارا}.

نقد مسالك الكاملين من العلماء

وقد لبس إبليس على أقوام من المحكمين في العلم والعمل من جهة أخرى فحسن لهم الكبر بالعلم والحسد للنظير والرياء لطلب الرياسة فتارة يريهم أن هذا كالحق الواجب لهم وتارة يقوي حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بأنه خطأ وعلاج هذا لمن وفق إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء وإعلام النفس أن العلم لا يدفع شر هذه المكتسبات بل يضاعف عذابها لتضاعف الحجة بها ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقر نفسه فلم يتكبر ومن عرف الله لم يراء ومن لاحظ جريان أقداره على مقتضى إرادته لم يحسد، وقد يدخل إبليس على

هؤلاء بشبهة ظريفة فيقول طلبكم للرفعة ليس بتكبر لأنكم نواب الشرع فإنكم تطلبون إعزاز الدين ودحض أهل البدع وإطلاقكم اللسان في الحساد غضب للشرع إذ الحساد قد ذموا من قام به وما تظنونه رياء فليس برياء لأن من تخاشع منكم وتباكى اقتدى به الناس كما يقتدون بالطبيب إذا اجتمى أكثر من اقتدائهم بقوله إذا وصف.

وكشف هذا التلبيس أنه لو تكبر متكبر على غيرهم من جنسهم وصعد في المجلس فوقه أو قل حاسد عنه شيئا لم يغضب هذا العالم لذلك كغضبه لنفسه وإن كان المذكور من نواب الشرع فعلم أنه إنما لم يغضب لنفسه بل للعلم وأما الرياء فلا عذر فيه لأحد ولا يصلح أن يجعل طريقا لدعاية الناس، وقد كان أيوب السختياني إذا حدث بحديث فرق ومسح وجهه، وقال: ما أشد الزكام.

وبعد هذا فالأعمال بالنيات والناقد بصير.

وكم من ساكت عن غيبة المسلمين إذا اغتيبوا عنده فرح قلبه وهو آثم بذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: الفرح فانه حصل بوجود هذه المعصية من المغتاب.

والثاني: لسروره بثلب المسلمين.

والثالث: أنه لا ينكر.

وقد لبس إبليس على الكاملين في العلوم فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارهم في تصانيف العلوم ويريهم إبليس أن المقصود نشر الدين ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر وعلو الصيت والرياسة وطلب الرحلة من الآفاق إلى المصنف

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انتفع بمصنفاته الناس من غير تردد إلى أو قرئت على نظيره في العلم فرح بذلك إن كان مراده نشر العلم.

وقد قال بعض السلف: ما من علم علمته إلا أحببت أن يستفيده الناس من غير أن ينسب إلي.

ومنهم من يفرح بكثرة الاتباع ويلبس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذكر ومن ذلك العجب بكلماتهم وعلمهم وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه وما هذه صفة المخلص في التعليم؛ لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى لله سبحانه وتعالى فإذا شفي بعض المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر وقد ذكرنا آنفا حديث ابن أبي ليلى ونعيده بإسناد آخر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبي من الأنصار ما منهم رجل يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ولا يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه أهل الفقه.

قال المصنف: وقد يتخلص العلماء الكاملون من تلبيسات إبليس الظاهرة فيأتيهم بخفي من تلبيسه بأن يقول له: ما لقيت مثلك ما أعرفك بمداخلي ومخارجي، فإن سكن إلى هذا هلك بالعجب وإن سلم من المسألة له سلم.

وقد قال السري السقطي: لو أن رجلا دخل بستانا فيه من جميع ما خلق الله عزوجل من الأشجار عليها من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار فخاطبه كل طائر بلغته، وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كأن في أيديها أسيرا، والله الهادي لا إله إلا هو.

موت العلماء مصيبة عظيمة على الأمة

قال الإمام أبونصر المروزي في "السنة" (١/ ٣١): حدثنا عبد الله بن معاوية بن موسى بن أبي غليظ بن مسعود بن أمية بن خلف الجمحي قال ثنا عبد العزيز بن مسلم القسملي ثنا عبد الله بن دينار قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة أن انظروا إلى ما كان من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه فإني قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء.

قال أبوعبدالله: سنده صحيح ورجاله ثقات.

وقال البيهقي في شعب الإيمان (١٧١٨): و فيما أجازاني أبو عبد الله و أذن فيه عن أبي العباس الأصم ثنا يحيى بن أبي طالب ثنا شجاع بن الوليد أبو بدر ثنا أبو خيثمة عن أبي إسحاق عن هبيرة بن يريم و أبي الأحوص عن أبي مسعود قال : لا يأتي عام إلا و الذي بعده شر منه، قالوا : إنا فيه يأتي علينا العام يخضب و العام لا يخضب فيه قال : إني و الله لا أعني خصبكم و لا جديكم و لكن ذهاب العلم و العلماء قد كان قبلكم عمر فأروني العام مثله.

قال أبوعبدالله: سنده لا بأس به، ففي السند هبيرة بن يريم متكلم فيه، إلا أنه قد توبع بنفس السند، وفيه عنعنة أبي إسحاق إلا أنه أثر قد يتجاوز فيه كما حدثنا بذلك المحدث الإمام الوادعي رحمه الله في دروسه.

علماء السوء

وقال ابن قدامة في "تحريم النظر في كتب الكلام" (١/ ٤٢): قال أبو عمر بن عبدالبر أجمع أهل الفقه والآثار من جميع أهل الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ لا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء وإنما العلماء أهل الأثر والمتفقه فيه.

وقال أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦ / ٣٦١): حدثنا سليمان بن أحمد إملاء ثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي ثنا يحيى بن يمان قال سمعت سفيان الثوري يقول الأعمال السيئة داء والعلماء دواء فإذا فسد العلماء فمن يشفي الداء.

قال أبوعبدالله: يحيى بن يمان فيه كلام إلا أنه يروي عن سفيان قوله وهو ليس بكذاب.

وقال أبونعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ٥): حدثنا أبو بكر الطلحي ثنا عبيد بن محمد الزيات ثنا محمد بن عثمان بن خالد ثنا عبدالرحمن المستملى عن سفيان الثوري قال: قيل: أي شيء شر؟ قال: اللهم غفرا العلماء إذا فسدوا.

قال أبوعبدالله: سينده لا بأس به، فإن عبيد بن محمد هو ابن صبيح قال الدارقطني في "سؤالات الحاكم" له (١ / ١٣١): عبيد بن صبيح الكناني الزيات لا بأس به.

وقال العلامة المجدد محمد بن عبدالوهاب النجدي في "مسائل الجاهلية" (١/ ٩): التاسعة : الإقتداء بفسقة العلماء فأتى بقوله : { يا أيها الذين آمنوا

إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله } [التوبة : ٣٤]، وبقوله : { لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل } [المائدة : ٧٧].

وقال ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٤٦١): قوله: { والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم } هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وقال البيهقي في "شعب الإيمان" (٢/ ٢٩٣): سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أبا بكر محمد بن محمد بن شاذان يقول : سمعت محمد بن يعقوب الترمذي قال : سمعت أبا بكر الوراق يقول : الناس ثلاثة العلماء و الأمراء و الفقراء فإذا فسد الأمراء فسد المعاش و إذا فسد العلماء فسدت الطاعات و إذا فسدت الفقراء فسدت الأخلاق.

وقال ابن أبي العز في "شرح العقيدة الطحاوية" (١/ ٢٠٣): فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله وتحريم ما

أباحه واعتبار ما ألغاه وإلغاء ما اعتبره وإطلاق ما قيده وتقييد ما أطلقه ونحو ذلك.

وقال أيضاً في (١/ ٥٢٠): قال طائفة من السلف : من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى.

وقال الغزالي كما في "فيض القدير" (١/ ١٤٠): احذر من الاغترار بعلماء السوء فإن شرهم أعظم على الدين من شر الشياطين إذ الشياطين بواسطتهم يتصدون إلى انتزاع الدين من قلوب المؤمنين ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشر الخلق قال : اللهم غفرا حتى كرروا عليه فقال : هم علماء السوء.

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويتحملها الناس فيذهبون في الآفاق وفي منثور الحكم والمدخل زلة العالم كانكسار السفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير... فأمر العلماء خطر وعليهم وظيفتان ترك الذنب ثم إخفاؤه إن وقع وكما يتضاعف ثوابهم على الحسنات
فيضاعف عقابهم على الذنوب والسيئات إذا اتبعوا والعالم إذا ترك الميل إلى الدنيا وقنع منها بالقليل ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق اقتدى به العامة فكان له مثل ثوابهم بنص خبر < من سن سنة حسنة > وإن مال إلى التوسع في الدنيا مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدرون على ذلك إلا بخدمة الظلمة وجمع الحطام الحرام فيكون هو السبب في ذلك فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بربح أو خسران.

وقال ابن القيم في "البدائع" (١/ ١٠٠) في قوله تعالى {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلي الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث} فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمة وذلك من وجوه: أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدا ولا جهلا.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقه من لا يعود إليه أبدا فانه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقى معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ولهذا قال فاتبعه الشيطان ولم يقل تبعه فان فى معنى اتبعه أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى.

و رابعها: أنه غوى بعد الرشد والغي الضلال فى العلم والقصد وهو أخص بفساد القصد والعمل كما أن الضلال أخص فساد العلم والاعتقاد فاذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم رفع به فصار وبالا عليه فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه اخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدني على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدني لم يكن عن خاطر وحديث نفس ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته الى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به قال مالك بن نويرة:

بأبناء حى من قبائل مالك ... وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض لان الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه إماما له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همه وأسقطها نفسا وأبخلها وأشدها كلبا ولهذا سمى كلبا.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب فى حالتي تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا هذا ان ترك فهو لهثان على الدنيا وان وعظ وزجر فهو كذلك فاللهث لا يفارقه فى كل حال كلهث الكلب.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ٣٧١): { فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون}.

وقال ابن الزملكاني: قال بعض مشايخنا كأن هذه الآية فينا نزلت وقد طم البلاء وعم بسبب طمع العلماء في الحطام وصار المؤمن القابض على دينه معهم كالقابض على الجمر لأنهم قد تمكنوا من صدور الخلق لغلبة الجهل عليهم فهم المقتدى بهم والمنظور إليهم فهم عند الخلق علماء وفي الملكوت جهال فمن تمسك بالسنة بين ظهراني هؤلاء بعد تمكنهم من الرياسة ونفاذ القول في الخلق فقد بارزهم بالمحاربة لأن في تمسكه بها هتكا لسترهم عند العامة وكشفا لعوارهم ونشرا لفضائحهم فالمتمسك بالحق يرصدونه بالعداوة ويرمونه عن قوس واحدة ويقذفونه بالعظائم ومع ذلك حرمة الإيمان معهم فالأولى أن لا يعذبهم بل يرحمهم. اهـ

وقال المناوي في "فيض القدير" (٤/ ٣٩٠): قال بعضهم: وصفة علماء زماننا تجدهم يجتهدون في تحسين الهيئة والثياب الفاخرة والمراكب السنية فإذا نظر إلى باطن أحدهم وجد خوف الرزق على قلبه كالخيال يكاد يموت من همه وخوف الخلق وخوف سقوط المنزلة من قلوبهم والفرح بمدحهم والثناء عليه وحب الرئاسة وطلب العلو والتبصبص للظلمة والأغنياء واحتقار الفقراء والأنفة من الفقر والاستكبار في موضع الحق والحقد على أخيه المسلم والعداوة والبغضاء وترك الحق مخافة الذل والقول بالهوى والحمية والرغبة في الدنيا والحرص عليها والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والرياء والسمعة والاشتغال بعيوب الخلق والمداهنة والإعجاب بالنفس والتزيين للمخلوق والصلف والتجبر وعزة النفس والقسوة والفظاظة والغلظة وسوء الخلق وضيق الصدر والفرح بالدنيا والحزن على فوتها وترك القنع والمراء والجفاء والطيش والعجلة والحدة وقلة الرحمة والاتكال على الطاعة وأمن سلب ما أعطى

وفضول الكلام والشهوة الخفية وطلب العز والجاه واتخاذ الإخوان في العلانية على عداوة في السر والغضب إذا رد عليه قوله والتماس المغالبة لغير الله والانتصار للنفس والأنس بالخلق والوحشة من الحق والغيبة والحسد والنميمة والجور والعدوان فهذه كلها مزابل قد انضمت عليها طوية صدورهم وظاهرهم صوم وصلاة وزهد وأنواع أعمال البر فإذا انكشف الغطاء بين يدي الله عن هذه الأمور كان كمزبلة فيها أنواع الأقذار غشيت بالذبائح فأنتنت فهذا عالم مرائي مداهن يتصنع عند شهواته فلم يقدر أن يخلص عمله ونفسه مقيدة بنار الشهوة وقلبه مشحون بهوى نفسه وهذه كلها عيوب والعبد إذا كثرت عيوبه انحطت قيمته.

تعير علماء السوء بما عندهم من الباطل

قال ابن حجر في "فتح الباري" (٣/ ٢٥٩): أصح ما قيل في ذلك: أن أموات الكفار والفساق يجوز ذكر مساويهم للتحذير منهم والتنفير عنهم، وقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياء وأمواتا.

وقال اللالكائي في "اعتقاد أهل السنة" (٤/ ٧١٧): أخبرنا أحمد أخبرنا محمد ثنا أحمد بن زهير قال ثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة قال ثنا الوليد يعني ابن مسلم عن المنذر بن نافع قال سمعت خالد بن اللجلاج يقول لغيلان ويحك يا غيلان الم يأخذك في شبيبتك ترامي النساء في شهر رمضان بالتفاح ثم صرت حارثيا اتحجب امرأة وتزعم أنها أم المؤمنين ثم تحولت من ذلك فصرت قدريا زنديقا.

وقال اللالكائي في "اعتقاد أهل السنة" (٤/ ٧٣٨): أخبرنا أحمد بن عبيد أخبرنا محمد بن الحسين ثنا أحمد بن زهير ثنا هدبه قال ثنا حزم بن أبي حزم القطعي قال ثنا عاصم الأحول قال جلست إلى قتادة فذكر عمرو بن عبيد فيه فقلت يا أبا الخطاب ألا أرى العلماء يقع بعضهم في بعض قال يا أحول ولا تدري أن الرجل إذا ابتدع بدعة فينبغي لها أن تذكر حتى تعلم فجئت من عند قتادة وأنا مغتم لقوله في عمرو بن عبيد وما رأيت من نسك عمرو بن عبيد وهدية فوضعت رأسي بنصف النهار فإذا أنا بعمرو بن عبيد في النوم والمصحف في حجره وهو يحك آية من كتاب الله؟ قلت: سبحان الله تحك آية من كتاب الله قال إني سأعيدها، فتركه حتى حكها فقلت له أعدها، فقال إني لا استطيع.

وأخرجها ابن عدي في الكامل (٥/ ٩٧): من طريق محمد بن جعفر الشطوي قال ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري عن هدبة به.

قال ابن الجوزي في "تلبيس إبليس" (١/ ٤٠٩): أخبرنا أبو منصور القزاز نا أبو بكر الخطيب نا الأزهري نا احمد بن إبراهيم بن الحسن ثنا عبد الله بن احمد بن جنبل قال جاء أبو تراب النخشبي إلى أبي فجعل أبي يقول فلان ضعيف وفلان ثقة فقال أبو تراب يا شيخ لا تغتب العلماء فالتفت أبي إليه وقال له ويحك هذه نصيحة ليست هذه غيبة.

أنبأنا يحيى بن علي المدبر نا أحمد بن علي بن ثابت نا رضوان بن محمد بن الحسن الدينوري قال سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله النيسابوري يقول سمعت أبا الحسن علي بن محمد البخاري يقول سمعت محمد بن الفضل العباسي يقول كنا عند عبد الرحمن بن أبي حاتم وهو يقرأ علينا كتاب الجرح

والتعديل فقال اظهر أحوال العلم من كان منهم ثقة أو غير ثقة فقال له يوسف بن الحسين استحييت إليك يا أبا محمد كم من هؤلاء القوم قد حطوا رواحلهم في الجنة منذ مائة سنة أو مائتي سنة وأنت تذكرهم وتغتابهم على أديم الأرض فبكى عبدالرحمن، وقال يا أبا يعقوب لو سمعت هذه الكلمة قبل تصنيفي هذا الكتاب لم أصنفه.

قلت: عفا الله عن أبي حاتم، فإنه لو كان فقيها لرد عليه كما رد الإمام أحمد على أبي تراب ولولا الجرح والتعديل من أين كان يعرف الصحيح من الباطل، ثم كون القوم في الجنة لا يمنع أن نذكرهم بما فيهم وتسمية ذلك غيبة حديث سوء ثم من لا يدري الجرح والتعديل كيف هو يزكي كلامه.

علماء السوء لا ينصرون الحق

قال الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٧/ ١٢٥) في ترجمة الأوزاعي: كان عبدالله بن علي ملكا جبارا، سفاكا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمر الحق كما ترى، لا كخلق من علماء السوء، الذين يحسنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف، ويقلبون لهم الباطل حقا - قاتلهم الله - أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق.

خاتمة

قال الإمام الشافعي:

إذا ما كنتَ ذا فضلٍ وعلمٍ بما اختلفَ الأوائلُ والأواخرْ

فناظرْ من تناظرُ في سكونٍ حَليماً لاتلحُّ ولا تكابرْ

يفيدكَ ما استفادَ بلا امتنانٍ من النكتِ اللطيفةِ والنوادرْ

وإِياكَ اللجوجَ ومن يرائي بأني قد غلبتُ ومن يفاخرْ

فإِن الشرَّ في جنباتِ هذا يميني بالتقاطعِ والتدابرْ

حسبي بعلمي أن نفعْ ما الذلُّ إِلا في الطمعْ

من راقبَ اللهَ رجعْ ما طارَ طيرٌ وارتفعْ

إِلا كما طارَ وقعْ

انتهيت بحمد الله وتوفيقه من جمع مادة هذا الكتاب الذي أسأل الله نفعه في الدنيا والآخرة، وأن يجعل له القبول في قلوب علمائنا أهل السنة، وأن يكو لهم عونا على التأسي بمن سلف من العلماء الناصحين

كتبه: أبوعبدالله كمال بن ثابت العدني